







أمير تاج السر

صائد اليرقات

The hunter of the larvae

Novel

رواية

صائد اليرقات

The hunter of the larvae

صائد اليرقات

The hunter of the larvae

رواية

أمير تاج السر





الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك ?-??-???-978-9948

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى

فيصل تاج السر

وأساطيره وعوالمه الملونة.

فإنْ شئتَ أن تسأل صورتك،
في ليلة دافئة،
بعينين غامضتين، والسؤال على الشفتين،
فلا تبحث عن ذاتك في المرآة:
إنّه حوارٌ مخنوقٌ، لا تسمع منه شيئاً.
بل انـــزل الى الشارع في بطء، وابحثْ عن ذاتك
بين الآخرين؛
هنا تجد الجميع، وأنت بينهم.

مقطع أسباني

- 1 -

سأكتب رواية. نعم سأكتب.

لا بدَّ أنّها فكرة غريبة حقًا، حين ترد إلى ذهن رجل أمن متقاعد مثلي، أنا عبدالله حرفش، أو عبدالله فرفار، كما ألقَّب منذ الصِّغر في الحي الذي نشأت فيه وكبر معي اللقب. لكنَّها لن تكون غريبةً أبدًا، وقد قرأت مؤخرًا في عدد من الصحف والمجلات التي وقعت بيدي واستطعت قراءتها بلا تعجّل، أن بائع ورد بنغاليًا في مدينة نيس الفرنسية، كتب رواية عن الورد بطلتها امرأة من المهاجرات الإفريقيات، ظلّت تشتري الورد الأحمر عشرين عامًا من محلِّه، من دون أن تغيِّر لونه، وتخيَّل البائع أنَّها تبعثه إلى حبيب ضائع في حرب بشعة. ونسج قصته، عن ذلك الإسكافي الفقير في رواندا، حين كتب رواية حول الحرب الأهلية الجماعية في ذلك البلد الإفريقي الفقير، لم يكتبها حتى مشعلو الحرب أنفسهم. وبائعة هوى تائبة في سايغون كتبت روايتين رائعتين، عن حياتها القديمة حين كانت نكرة في زقاق مظلم، والجديدة حين أنشأت مصنعًا صغيرًا لحلوى النعناع، والآن تترجمان إلى كلِّ اللُّغات وينبهر بهما القرَّاء.

لكنْ كيف جاءتني تلك الفكرة الغريبة، ولم أكن قارئًا طَوال حياتي، ولا واسع الخيال إلا في مجال عملي، وما وقفت أمام مكتبة من قبل إلا حين يدخلها مشبوهٌ ملاحقٌ من أجهزتنا، أو تتحدث التقارير عن كتب ممنوعة تدخل البلاد خفية بواسطة مهرِّبين محترفين، وتوزَّع

مـــن تحـــت الطاولات. وقد أهداني المسيحي (ر. م)، صاحب مكتبة (أعـــلاف)، إحدى المكتبات القديمة المعروفة في العاصمة وكان صديقًا بحكم مراقبتي الطويلة له مرَّة كتابًا عن السحر، وتجارب السحرة ترجم عـــن اللغة الفرنسية، ظللت أقلِّب صفحاته عدة أيام، ولا أحسُّ بمتعة حقيقـــية حتى وأنا أقرأ عن الساحر الهندي (راجندرا) الذي دخل مرَّة قفـــصًا للدجاج وخرج حمار وحش متكامل الخطوط والنهيق، والفتاة اليهودية نيرا أزاموند التي شربت مئة رطل من زيت الخروع، ولم يصبها أي إســـهال أو اســـتفراغ ولا انفجرت مصارينها، والساحر النيجيري المعروف حاج بوكو، الذي غاب عن الجماهير المحتشدة في عرض يقيمه في أحـــد شـــوارع كانـــو، عـــدة دقائق فقط، شاهده فيها كثير من المعتمـــرين، يطـــوف معهم محرمًا وحليق الرأس في مكة. وصادرت في أحـــد الأيام من مكتبة المسيحي (ر. م) نفسه خمسين نسخة من كتاب محـــرم لا أدري كيف دخل البلاد بكلِّ تلك النسخ. كان عن عادات الـــزواج في العالم، ولا أنكر أنه شدّني قليلاً، وراقتني كثير من القصص التي وردت فيه، خاصّة طلب الزواج من الفتاة برفع فستانها فجأة إلى ما فوق ركبتيها، الذي كان سائدًا لدى إحدى القبائل الإفريقية. وظللت أسير في الطريق وأنا أتخيَّل فساتينَ عديدةً لفاتنات يسرن أمامي، مرفوعة وأنا الذي رفعتها طلبًا للزواج.

إنّـــه ذلـــك الحادث المباغت بلا شك، الحادث الذي فقدت فيه ســـاقي اليمنى، ووظيفتي المحترمة في نظري، وكثيرًا من المتع، وأصبحت عدة أشهر سجينًا في بيتي لا أغادره إلا مضطرًّا.

كـــنّا في مهمـــة مراقبة، هكذا تسمّى حين نؤمر بها، واحدة من المهمّات الممتعة لديَّ ولدى زملائي من منتسبـــي جهاز الأمن الوطني، حيث لا حركة ولا ركض في الشوارع، ولا سؤال أو جواب، ولكنْ

مجـــرّد الجلـــوس على سطح عربة مكشوفة في ناصية مظلمة، ومتابعة الطـــريق. كانت ثمة معلومات عن لقاءات مشبوهة تجرى في مزرعة في الـــضاحية الجنوبية من العاصمة، يملكها الرأسمالي (ص. ج)، أحد تجّار الحديد المعروفين. لم نكن نعرف ماذا يدور حقيقة في تلك المزرعة، أو إن كان ذلك الاشتباه، يخصُّ أمن الوطن حقيقةً، أم مجرّد خرق أخلاقي عادي أبطاله رجال ونساء عاديون، ولا يرقى إلى مستوى تتبُّعه أمنيًّا.

وقفنا بعربتنا في أول الليل تحت تلّة تقع أسفل بداية الطريق الذي يقود إلى تلك المزرعة، كان برفقتي مجنّدان آخران، أحدهما يجلس ساكنًا خلـــف مقـــود الـــسائق، والآخر معي على سطح العربة، وجهازانا اللاسلكيان المصنوعان في الصين، مفتوحان، نسمع من خلالهما الرطانة الـــتي تصدر من القيادة، ونستطيع استخدامهما في نقل الوقائع أو تلقي الأوامـــر، حين تكون ثمة أوامر يجب تلقيها. كنت أثبت بصري على الطريق، أتأمل فراغه، وكان زميلي (ع. ب) مشغولاً بالعبث في هاتفه المحمول وتصفُّح الرسائل، والضحك للمرّة العاشرة على نكتة جاءته في رسالة، وكانت عن امرأة عراقية، غاب زوجها عن المنـــزل يومًا كاملاً ولا تعـــرف عنه شيئًا، وظلت تبكي بلا توقف ظانة أنه تركها وذهب بصحبة امرأة أخرى، وقالت لها أمها: "تفاءلي خيرًا يا بنيَّة، لعل انفجارًا حدث في السوق أو مكان العمل ومات فيه".

فجـــأة ظهرت أضواء خاطفة لعربة قادمة من ناحية المزرعة تتجه نحـــونا، وبسرعة كبيرة، ارتبكنا أنا وزميلي الذي بتر ضحكته الحادية عشرة قبل أن يكملها، وصحت في جهازي اللاسلكي مبلغًا القيادة عن ظهـــورها، وســـائلاً عن الخطوة التالية، وكانت أمرًا قاطعًا أن نتحرك لملاحقتها فورًا. صعدنا التلّة في عنف، وقد سقطت أضواء عربتنا على الطريق كاشفة الحصى والرمل وعنـــزتين هزيلتين تتخبَّطان في الليل. لا

أعرف ما حدث بالضبط لكنَّ العربة الأخرى استدارت فجأة عائدة من حـــيث جاءت وكانت من نوع الصالون، حمراء اللون. انقلبت عربتنا المكشوفة على ظهرها، ناثرة محتوياها التي كانت أنا وزميلي (ع. ب)، والسائق، أسفل التلّة في الحصى المدبّب وغبت عن الوعي.

مـــات السائق في ذلك الحادث المباغت، أصيب زميلي (ع. ب) بالـــشلل الرعاش وفقدان الذاكرة، ولم يشف أبدًا، وفقدت أنا ساقي الـــيمنى حيث بترت في مستشفى عسكري بسبب الغرغرينا. وجاءت التقارير اللاحقة بعد ذلك، لتؤكّد أن العربة الصالون الحمراء التي كانت قادمـــة من المزرعة، تخص جهازًا أمنيًّا آخر، لم ينسِّق معنا، وكانت في مهمـــة أرفـــع شـــأنًا من مهمتنا، لأن سائقها كان برتبة أعلى، وكان مشاركًا في النشاط المشبوه، يحاول تقصِّيه من الداخل، وأفسدنا مهمته التي أوشكت على النجاح، من دون أن نعلم عنها شيئًا.

لم أكن متزوجًا، ولا فكرت في الزواج قط برغم عشرات الفتيات اللائي التقيت بهن في حياتي، ويمكن أن يملأن البيوت بالثرثرة والأطفال، كنت بلا إخوة ولا أخوات وكانت عمّتي الوحيدة (ث) التي تقيم قريبًا مـــن بـــيتي مع زوجها مدلِّك أحد الفرق الرياضية، تأتي في أيام إعاقتي الأولى وقـــبل أن أحظـــى بساق تعويضية تساعدني على الحركة، تقوم عمّـــتي بمهمة تحريكي وإطعامي وغسل ملابسي وكيِّها، ويرتعش بدنها كلّه، كلّما لمحت سلاحًا مغبَرًّا على الطاولة، أو سمعت جهازًا لاسلكيًا يـــرطن بلغة لا تستطيع فهمها، أو شاهدت خطي الرديء على واحدة مـــن الأوراق الـــصفراء التي كنت أعشق تدوين التقارير عليها. وحين تحـــرّكتُ أخـــيرًا وأمكنني أن أمارس حياتي الجديدة من دون مساعدة أحد، اختفت عمتي (ث) بحجّة آلام أسفل الظهر التي كانت قد شفيت مـــنها، وعاودها مرَّة أخرى من كثرة الانحناء. تركتني أشاهد فراغي

الكـــبير مرسومًا أمامي في كلّ شيء حولي، وأفكر بلا توقف، وتأتيني أفكار غريبة ما كانت لتأتي لولا ذلك الفراغ..

سأكتب رواية.

الفكرة تلحُّ بجنون، ولا أستطيع قهرها.. تلحُّ أكثر.. ولا أستطيع. سأكتب تلك الرواية بلا شك، وسأسعى لمعرفة كيف تكتب الروايات، لست أقل شأنًا من بائع الورد البنغالي في نيس، ولا الإسكافي الفقير من روانـــدا، ولعلي أتساوى في حجم الخطايا مع بائعة الهوى التائبة تلك، فأكتب روايتين عن حياة قديمة عشتها بساقين كاملتين، وجديدة بساق خـــشبية. لن أقول خطايا حتى لا أبتئس، ولكنْ تجارب.. نعم تجارب كثيرة ومتشعِّبة.. كيف أبدأ؟

حككت رأسي بعصبية، وعثرت على الجواب بعد تفكير عميق.. نعم أعرف الآن من أين أبدأ.

- 2 -

اقتربت من مقهى (قصر الجميز)، أقدم مقاهي العاصمة، وأكثرها ضجيجًا وزحامًا، وعرضًا للوجوه المشبوهة في نظرنا، ونظر تقاريرنا اليومية التي كنّا نكتبها بمتعة غريبة. كانت في الواقع وجوهًا لكتاب يحتلون مواقع لامعة في الكتابة، وآخرين يقاتلون بحثًا عن مواقع تبدو لهم بعيدة المنال: شعراء متأنّقين في سراويل وقمصان زاهية، وشعراء حفاة حتى من صنادل ممزقة، صحفيين يائسين، وسياسيين يدخّنون ويرطنون ويتصارعون، ويرسمون للناس وطنًا آخر غير الوطن الذي نعيش فيه ونعرفه، ونحبّه بكلّ حسناته وعيوبه. ودائمًا ثمّة نساء يتحلقن حول الضجيج، أو يساهمن في خلقه بضحكات كثيرًا ما رسمناها على تقاريرنا الأمنية باعتبارها ضحكات أفاعٍ.

كانت قدمي اليمنى المصنوعة محليًا من الخشب الأملس تعيق تنقُّلي قليلاً، لكنّني اعتدت ثقلها منذ أن فُصِّلت لي، أجرُّها فتنجرُّ، واستطعت بقليل من التدريب أن أنجز بها عدة كيلومترات من المشي متوسط السرعة، أنحشر بها في حافلات النقل الممتلئة بالفقر والبشر، وسبحت بها مرّة في النيل ساعتين كاملتين من دون أن تتخلخل، وعددت ذلك نصرًا كبيرًا. أذكر أول مرّة دخلت فيها ذلك المقهى القديم، كنت في بداية حياتي المهنية، شابًا وخشنًا ومدربًا على استخراج خامات التآمر حتى من نسمات الهواء وأجنحة الذباب وابتسامات الشفاه حين تبتسم. وقد كلّفت بمراقبة الحزبي الراحل (أ. س)، الذي ينتمي إلى حزب

ممنوع في البلاد، وكان ثرثارًا كبيرًا تحتشد حول ثرثرته الجماهير حتى لو ثرثـــر في قعـــر بئر، وكان معروفًا لدينا باصطياده للفقراء والمهمشين وتدريبهم على لغة التمرد والانتفاض، وتجنيد عدد كبير منهم في حزبه الممـــنوع، ثم صمت فجأة. كان يمشي في الشوارع صامتًا، يحيّي الناس ويـــرد على تحاياهم في صمت، يأتي إلى قصر الجميز كلَّ مساء ليجلس في أحـــد الأركـــان البعيدة صامتًا، ويغادر صامتًا، وفسَّر صمته لدى المسؤولين في الأمن الوطني، بأنه مؤامرة فاجرة ضد الوطن لا بدَّ ستظهر نتائجها لاحقًا، وعلينا إحباطها. وجدته في ذلك اليوم غارقًا في صمته الكـــبير، أمامه كوب شاي ممتلئ لا يمدّ يده إليه، ونرجيلة خبت نارها من دون أن يلمسها.

تتـــبّعتُ ذلك الصمت، انغرستُ فيه ساعات حتى غادر المقهى، وظللـــت أتتبعه وأنغرس فيه أكثر من ثلاث سنوات، وأسلِّم إدارتي في كـــلّ يوم تقريرًا ممتلئًا بتفسيرات معقدة للصمت كنت أخترعها بخيالي المحـــدود، حـــتى رحل الرجل بأزمة قلبية، من دون أن يترك في دفاترنا حرفًا ذا جدوى، لكنّني كُرِّمت يوم رحيله، ووصفت مهمتي بالنجاح.

كـــان قـــصر الجميز ممتلئًا بالزبائن في تلك الساعة، وقد جددت لافتـــته القديمـــة مـــتآكلة الحـــروف، بأخرى حديثة مطعَّمة بالألوان والزخرفة، وأضواء النيون، إثر رحيل مؤسسه القديم، وبيع ورثته المقهى لأحد المستثمرين الجدد. لم أعثر على أحد من جرسوناته القدامى أمثال عنتـــر والـــشفيع ورامبو السريع، أولئك الذين ساهموا في شهرة المقهى وجلـــب الزبائن فيما مضى، وعثرت على فتيات نظيفات من لاجئات إثيوبـــيا المحطَّمـــة، يـــرتدين زيًّا بنيًّا غامقًا، شعورهن ورموش أعينهن مـــصبوغة بالبني أيضًا، وثمة لغة متكسِّرة يخرجنها بصعوبة، يستقبلن بها الزبائن، وأياد رقيقة وطريَّة، يقدمن بها القهوة والشاي والبخور وبعض

الحلـــويات المحلية، أو يشعلن بها نيران نرجيلة تخبو أمام أحد الجالسين. رحـــبت بـــي إحداهن بذلك الترحيب المغري، أرادت أن تقودني إلى ركـــن بعـــيد ومنعـــزل حين شاهدتني وحيدًا، لكنّني كنت أبحث عن الروائي (أ. ت). أردت أن أجلس إلى طاولته التي أعرف بحكم مراقبتي لذلك المقهى منذ سنوات سعيًا وراء عدد من السياسيين، أنه لا يغيب عـــنها إلا نادرًا، لعلّي أعثر على ضوء ينير لي سكة البداية في مشروعي الملحّ: مشروع كتابة رواية.

كان الكاتب الذي لمع منذ عدة سنوات، وتتناقل وسائل الإعلام اسمـــه باســـتمرار، موجـــودًا لحسن حظّي في ذلك اليوم، جالسًا على طاولتين ملتصقتين، في وسط جمع كبير بعض الشيء معظمه من النساء الغارقـــات في الـــزينة، والوجوه المصبوغة، يخاطبونه باحترام، وتصف إحـــداهن روايته الأخيرة المسماة (على سريري ماتت إيفا)، بأنها رواية قـــد شارك الجنُّ في كتابتها وليست رواية بشر، ولا بدَّ أن ذلك القول كـــان إطراءً كبيرًا بالرغم من أنني فهمته عكس ذلك، لأن اللامع (أ. ت)، انتصب في جلسته رافعًا رأسه أكثر، ومضيفًا ابتسامة غير ساحرة، لكنّها سحرت الآخرين.. ردد:

"هي كذلك.. نعم كتابة جن".

شـــعرت لوهلة بالغيظ من تقاعدي القسري بعد أن بترت رجلي إثـــر ذلك الحادث الذي ضاع فيه أحد الزملاء وضاعت بعده وظيفتي. في الماضـــي لم يكـــن أمر مثل هذا سينتهي بابتسامة ورأس مرفوع في غطرسة. كنت سأبحث عن إيفا التي ماتت على سرير لا بدَّ كان ممتلئًا بـــالفتن والمؤامـــرات. سأبعثر ملاءاته ووسائده، وأغطيته، وأجرُّ ذلك المعتوه إلى مصير آخر. لكنّي ما لبثت أن هدأت. لست في مهمة رسمية، بل لست تابعًا لأي جهة تكلّفني المهام، ولكنْ أبحث عن طريقة لكتابة

الـــرواية، ولا بدَّ أن الروايات تكتب هكذا، وتمجَّد هكذا حين توصف بأنهـــا كتابة من عمل الجن وليست كتابة بشر. ردَّدت في ذهني مرارًا عنوان الرواية حتى لا يضيع مني، واعتزمت أن أبحث عنها فيما بعد عند المـــسيحي (ر. م)، أو غـــيره من باعة الكتب لأرى كيف ماتت تلك الإيفا على سرير أحدهم.. وما تداعيات ذلك الموت، وربما يكون ذلك مدخلـــي للكتابة، أو ربما أقلدها وأنجز شيئًا يرفع من معنوياتي. الآن أنا قـــريب مـــن عالم الكتابة بشدّة، والمقعد الخشبـــي الذي سحبته من إحدى الطاولات الفارغة، وانحشرت به في طاولة الكاتب اللامع، يبدو قـــريبًا جدًّا من مقعد الرجل، وأمكنني أن أستخرج بقليل من التقصّي، من الوجه المتغطرس المبتسم بثقة، كثيرًا من الانفعالات التي ربما تفيدني حـــين أصبح في مثل لمعانه ويلتفّ حولي الآخرون. لم يلتفت أحد إلى تلـــك الهرجلة التي أحدثتها بتزحزحي ومحاولة اقترابـــي من الكاتب، كانـــوا في لحظة انبهار عنيفة، وصاحبة فكرة مشاركة الجن في الكتابة، تبدو منفرجة الشفتين لطرح تصور آخر.. كان سؤالاً في الواقع.

- لكنْ كيف جاءتك الفكرة أستاذنا؟

هنا تراجع (أ. ت) على مقعده، مفسحًا مجالاً للسؤال حتى يدور في أذهـــان الآخـــرين كما يبدو، ثم انتصب من جديد. كانت صاحبة الـــسؤال، تلاحقه بعينيها في استرخائه وتصلُّده، وكانت فتاة من ذلك الـــنمط المـــصنف في تقاريرنا الأمنية: فتاة مندفعة، يمكن أن تلج خلية للـــنحل بقدمـــيها وهي تدري أنها خلية للنحل. في الماضي ما أسهل ملاحقـــتها وكـــتابة عشرات التقارير السخية عن سلوكها ومظهرها، ويـــبدو ســـروال الجينـــــز الأزرق باهت اللون الذي ترتديه ويخطّط جـــسدها بتفاصـــيل موحية، مخالفًا لقوانين الانضباط، وجاذبًا بشدة للأحكـــام القاسية التي يصدرها قضاة محاكم النظام العام، مثل السجن

والجلـــد.. لن أفكر كثيرًا في هُوّيتها حاليًا، أنا خارج الخدمة، سأتابع مهمتي الشخصية... مهمَّة تعلم الكتابة. كان الكاتب يردّد:

- الأفكار موجودة في كلّ زمان ومكان يا أصدقاء، في الواقع الأفكار موجـــودة حـــتى في رئاتـــنا التي نتنفس بها، ومصاريننا التي تهضم الطعـــام، في الطريق العام وإعلانات التلفزيون، وأباريق الماء ومواء القطط وكلِّ شيء وفي عالم الكتابة تضيع كثير من تلك الأفكار، لأنهـــا وقعـــت في أيدي موهومين لا موهوبين. ولدي حصيلة من الـــروايات كانت ستكون أفضل كثيرًا لو كتبتها أنا أو غيري من الأفـــذاذ.. روايـــات عربية وصينية ويابانية وحتى من جزر القمر، لكنْ (على سريري ماتت إيفا) برغم ذلك ليست فكرة عادية. إنّها فكـــرة أن تـــضع الحياة والموت معًا على سرير واحد، ينامان معًا متغطّيان بنفس اللحاف ويصحوان معًا في الصباح. لقد كتبت تلك الـــرواية قـــبل عامين تقريبًا إثر عودتي من رحلة إلى موسكو، وما زلـــت أشـــعر بالفخر أنني كتبتها وأخاف ألا أكتب بعدها رواية بنفس القيمة.

كان كلامًا صعبًا للغاية، ولا استطعت أن أفهم أبدًا كيف توجد أفكـــار في مصارين مخصّصة لهضم الطعام، أو رئة وظيفتها التنفس، أو إبـــريق ماء ومواء قطة. والحياة والموت اللذان يتغطيان بلحاف واحد، ينامان ويصحوان معًا.. لا بدَّ أن الكتابة أصعب مما تصوَّرتها حين ألحَّت علـــيَّ فكرة أن أكتب رواية، أو لعلها مرض من الأمراض المزمنة غير القابلة للشفاء، ولا بدَّ أن أولئك الكتاب مجانين بحاجة إلى أن يعالجهم أحـــد، أو يوضـــعوا في مـــصحّات تعزلهم وتعزل أفكارهم عن العالم الواعـــي. شـــتَّت بصري في المتحلقين حول الكاتب، كنت أبحث عن استغرابهم من تلك المفردات المعقدة، لكنْ ليس ثمة استغراب وإنما مزيد

من الإطراء، وصاحبة السؤال ابتسمت الآن بعمق، أخرجت من حقيبتها الجلدية المقشرة عند حوافها، مخطوطًا ضخمًا مغلّفًا بورق وردي، سلّمته للكاتب بعد أن قامت من مقعدها، وظهرت تفاصيلها الموحية.

- روايتي الأولى.. (لحظة حب).. بحاجة إلى تقديمك أستاذي.. أنهيتها بالأمس فقط وأنا واثقة أنها ستعجبك.

لم يبد (أ. ت) متحمسًا كثيرًا، لكنَّه تسلّم المخطوط من يد بها سوار من القصدير اللامع، وعلى إبهامها خاتم ذو فص أخضر، ألقى عليه نظرة متشائمة ثم وضعه على ركبتيه. لم يقل شكرًا، وخمَّنت أنه يتلقى باستمرار مثل تلك المخطوطات من كتاب مبتدئين، ربما تزعجه أكثر مما تمجِّده ككاتب يسعى إليه الآخرون لتقديمهم. وفكّرتُ حين أكتب روايتي الملحَّة، أن أقدمها إليه في مغلّف مشابه وأرى تشاؤمه وتعكُّر مزاجه. لكنَّ روايتي لن تكون قصَّة حب بكلِّ تأكيد كقصة صاحبة الجينز باهت اللون والأسئلة، ذلك النوع من القصص التي في اعتقادي برغم عدم ثقافتي، لم تعد تبهر أحدًا بعد أن أصبح الحب روتينًا يوميًا يمارسه حتى المتسولون والمشردون في الشوارع. إنها رواية مختلفة وحتى الآن لا أعرف عنها شيئًا سوى أنني سأكتبها في القريب العاجل.

اقتحمت الجلسة إحدى النادلات الإثيوبيات، الفتاة نفسها التي رحبت بي بإغراء وحاولت جرِّي إلى ركن بعيد، وعزلي. وضعت جمرًا جديدًا على نرجيلة منطفئة أمام أحد الجالسين، ثم ألقت بعدّة ابتسامات متباينة في ضيقها واتّساعها ورحلت. وجدت نفسي أتنحنح بقوّة، ثم ألقي سؤالاً ضخمًا ما ظننت أبدًا أنني سألقيه يومًا ما، في حضرة كاتب لامع يتحلّق حوله المغمورون:

- ما هي طقوس الكتابة لديكم أستاذي؟

كانـــت كلمة طقوس التي نطقت بها، جديدة عليّ تمامًا لا أذكر أنـــني اســـتخدمتها من قبل، ولا أعرف كيف نطّت إلى ذهني في تلك اللحظة.

بغتة حاصرتني الوجوه كلُّها بما فيها وجه الكاتب الذي بدا لي في تلك اللحظة وجه ناقة، ولا أدري لماذا وجه ناقة بالتحديد وليس وجه فـــرس أو أي شـــيء آخر. كانوا يتفحصونني باهتمام، يصعدون إلى وجهـــي ويهبطون إلى قدمي، ولعل توجسًا أصاب بعضهم من ظهور غريب بينهم في جلسة يعرفون تمامًا من يأتي إليها ومن لا يأتي، ولا بدَّ أهـــم انتـــبهوا إلى ساقي الخشبية التي لم يفلح ثوبـــي برغم طوله في تغطيـــتها تمامًا، والفتاة صاحبة سروال الجينـــز باهت اللون، ارتعدت بـــشدة وهـــي تـــسحب نظـــراتها بعيدًا، واستطعت أن ألمح قميصها الرصاصي المصنوع من قماش البوليستر، ينبض بعنف في الجانب الأيسر من صدرها.

- أتشرَّف باسمك لو سمحت؟

كان (أ. ت) يسألني.

- عبدالله فرفار.. أقصد عبدالله حرفش.. وفرفار لقبـــي منذ الصغر.
- الاسم واللقب موحيان.. يا فرفار - حرفش.. هل أنت كاتب؟

كان الجميع قد انشغلوا بـــي في تلك اللحظة، انشغلوا لدرجة أن أحدهم احترقت سيجارته بين أصابعه و لم يسقطها، وفتاة أخرى ترتدي ثـــوبًا بنفـــسجيًا قـــصيرًا من الكتّان، انفتحت ركبتاها و لم تغلقهما. وشـــعرت بالفخر أن أشغل مثقفين في طاولة مثقفة. ليتني كنت كاتبًا بالفعـــل لأخرج كتابـــي في تلك اللحظة، أوقّعه بقلم الباركر القديم الذي أحمله بعد أن عبأته بالحبر، أوزعه على الجميع وأستمتع بنظراتهم

التي تسيل على غلافه وتحسدني، لكنَّ روايتي ستكتب حتمًا في يوم ما، وسـأجلس على تلك الطاولة، أو طاولة مشابهة في مقهى آخر، ويأتي أحـدهم بساق خشبية أو عين صناعية، أو أسنان مسوسة ليسألني عن طقوس الكتابة عندي، ومن أين آتي بالأفكار؟ وربما تأتي فتاة بمواصفات خـرق الـنظام العام لتقدم لي قصة حب بحاجة إلى تقديم، اتسلّمها في تشاؤم ولا أقول شكرًا. كان أ. ت قد استرخى الآن مغمضًا عينيه كأنه يرسم طقوسه على ذهنه أولاً قبل أن يخرجها على الملأ..

- محاولات أستاذي.
- حسنًا يا صاحب المحاولات.

فتح عينيه أخيرًا

- طقوسي في الكتابة تختلف من نص إلى آخر، هناك نصوص أكتبها بكامل أناقتي وأنا أجلس في بهو فندق راق أو صالة للمغادرين في أحـد المطـارات، نصوص أكتبها عاريًا في غرفة مغلقة ومسدلة الـستائر، ليس فيها نسمة هواء، ونصوص لا تأتي إلا إذا تشردت في الـشوارع ونمت في الأزقّة، وتسوّلت من المارة، وحين كتبت روايتي قبل الأخيرة، (أبناء سعد المحتالين)، سرقت حافظة نقود من جـيب تاجر مواشٍ في سوق (مسواك) الشعبـي، وقضيت شهرًا كـاملاً في السجن أنهيت فيه النص. اقرأ تلك الرواية، وانظر إلى عمق التجربة، يا صاحب المحاولات.

كـان جـنونًا بـلا شك، جنونًا زاد من انبهار المتحلقين حول الكاتب، ومن مغصي أنني خارج الخدمة، ومن ثم ضاع مني تقرير مهم كان سيساهم في منحي ترقية أو علاوة حين أرتّبه جيدًا، وأضيف إليه بعـض التوابل. هل حقًا ما يقول ذلك الكاتب غريب الأطوار، أم أنها مجرد دعابة أراد أن يسحر بها أولئك المغمورين، ويبعد كاتبًا مبتدئًا عن

الـــدرب، إن جاز لي أن أكون كاتباً مبتدئاً ولا أعرف حتى الآن كيف أبدأ؟ أردت أن أسأله عن تاريخ تلك الحادثة، واسم تاجر المواشي الذي سرق حافظة نقوده، وفي أي سجن من سجون العاصمة الكئيبة قضى عقوبته، وكيف كان يكتب ولا بدَّ يشاركه في الحبس أناس آخرون لم يدخلـــوا السجن لخوض تجربة، لكنَّ تلك الأسئلة لا تبدو متعقِّلة، وفي تلـــك اللحظـــة بالذات، سأل شاب بلحية مبعثرة وطاقية من سعف النخـــيل تغطـــي رأسه وتنـــزلق حتى نصف وجهه، وبين يديه كتابان أحدهما ضخم بشكل لافت والآخر ضئيل أشبه بدفاتر التلاميذ:

- و(على سريري ماتت إيفا).. روايتك الأخيرة الرائعة.. كيف كان طقس كتابتها؟
- طقس مختلف.

ردّد الكاتب:

- مخـــتلف جـــدًّا.. فقد كتبتها في بيت أمّونة البيضاء التي تعرفونها كلُّكـــم، استأجرت بيتها ومشاعرها ونـــزواتها شهرين كاملين، أنجـــزت فيهما الرواية. كنت أكتب بسرعة غريبة، وتزداد سرعتي كلّما نظرت إلى وجه البيضاء، لن تصدقوا بكلِّ تأكيد، لكنْ هذا ما حدث.

في بـــيت أمّونة البيضاء مغنية الزار من أصل إثيوبـــي، التي تحظى بـــشهرة واســـعة في البلاد، ويلتف حولها المهووسون من شتَّى طبقات المجـــتمع؟ لم يكن الرجل مجنونًا فقط، لكنَّه خطر على الكتابة نفسها، حـــين يلطِّخهـــا في تلك الأجواء الموحلة، سجون وأزقة، وبيوت زار شـــيطانية. ولو جلست أكثر لربما سمعت عن رواية كتبها اللامع داخل واحـــد من المراحيض العمومية. نظرت إلى ساعتي الوست اند القديمة ذات الميـــنا الخـــضراء التي أرتديها منذ ثلاثين عامًا، ونهضت لأنصرف

مستذرعًا بموعد تأخرت عليه. سأخلو إلى نفسي قليلاً في غرفتي أفكر، وقد أعود في يوم آخر بعد أن أكون قد تسلحت بشيء من الجنون لأسأل أو أستمع. كنت أجرُّ ساقي الخشبية مبتعدًا عن ذلك الجنون، وأسمع صوت الروائي اللامع يطاردني:

- انتظر يا صاحب المحاولات.. سأحكي عن روايتي التي كتبتها في مرحاض عمومي مخصص للمجندين أثناء تأديتي الخدمة العسكرية. إنها واحدة من أفضل رواياتي.

- 3 -

كنت أسكن في بيت صغير مجاور لأحد الميادين الرياضية في واحد مـــن أحياء العاصمة متوسطة الحال. وبرغم الضجيج الذي كان يحدثه مـــرتادو ذلك الميدان الرياضي من لاعبين ومشجعين وإداريين، خاصَّة حـــين تكون ثمَّة مباراة فاصلة بين فريقين من الفرق الكبيرة، أو تكريم لأحـــد اللاعـــبين المعتزلين، إلا أنني لم أكن أكترث، على العكس من ذلـــك، كـــنت أتتـــبّع الصراخ وأنا أفتح نافذتي التي تطل على الملعب مباشرة، أضحك من بعضه في متعة وأستخرج من بعضه عبارات يمكن أن تكـــون خرقًا سافرًا للنظم الأمنية، وربما أتحرَّك إلى الميدان وأنا أحمل قلمي الباركر وأوراقي الصفراء وخططي في المراقبة. وفي إحدى المرّات وفي مـــباراة حامية ممتلئة بالصراخ والتشنّجات، سمعت مشجّعًا مهتاجًا يـــصف لاعـــبًا أضـــاع هدف الفوز لفريقه، بخيانة الوطن. علق اسم اللاعـــب في ذهـــني على الفور، وانكتب في إحدى أوراقي المرسلة إلى إدارتي، لكنَّ أحدًا لم يسأله أبدًا ووُبِّخت بشدَّة على ذلك التقرير، ذلك أن المشجع كان يقصد فريق (الوطن) وكان اللاعب الذي أضاع الفوز من بين صفوفه.

كـــان البـــيت مكوّنًا من غرفة واحدة مطليّة باللون الرصاصي، وصـــالة ضيّقة بلا لون، وحمام، وركن صغير أستخدمه مطبخًا. وبرغم قلَّـــة عدد زوّاري الذين كان أغلبهم من زملاء الخدمة فيما مضى، أو بعـــض معـــارفي القليلين، فقد حرصت على جعل صالتي الضيّقة أنيقة

دائمًـــا، بها عدة كراسي جلدية من صناعة الصين، وطاولة من خشب التيك الراقي ومزهريتان كبيرتان فيهما ورد اصطناعي، بينما عدّة العمل الـــتي أستخدمها من أوراق وأجهزة وسلاح، مخبأة في غرفتي لا يطلع علـــيها أحد. وكانت عمتي (ث) من القلائل الذين اطلعوا على تلك العـــدة، ولكـــنْ بعد أن انقطعت حاجتي إليها، ثم لترسل الإدارة أحد الزملاء ليستلمها بعد ذلك تاركًا لي الأوراق فقط، والتي سأستخدمها قطعًـــا في كتابة الرواية، فقد اعتدت على شكلها، وملمسها وأعتبرها أوراقًا موحية.

على باب بيتي، استوقفني المشجع (ع. د)، كبير مشجعي فريق اللـــبلاب المتـــربع على صدارة الفرق منذ زمن، وكان أيضًا حفّارًا متمرّسًـــا للقـــبور يمارس نشاطه في مقبرة عمران، في أحد أطراف العاصـــمة. وقد كُرِّم مؤخرًا بواسطة رئيس البلاد، بوصفه شخصيةً وطنـــيةً تستحق التكريم.. كان يرتدي زيًّا أخضر مما يرتديه رجال الطرق الصوفية، وتتدلّى من عنقه مسبحة ضخمة من ثمار اللالوب، بينما حول رسغه الأيسر حلقة معدنية يعتقد الناس أنها تشفي من داء الروماتيزم وتنتشر كثيراً في البلاد. كان يسألني إن كنت قد شاهدت حفل تكريمه، وصوره برفقة الرئيس، ولم أكن قد شاهدت شيئًا من ذلـــك. ســـألني إن كـــنت أرغب أن أرى الصور، وأجبته بالنفي. أحسست به محبطًا، ينسحب من أمامي متجهًا إلى الميدان الرياضي، وتـــبرز مـــن جيـــبه صحيفة مطويّة لا بدَّ أنها تحوي بعضًا من تلك الصور. فكرت أنه لا بدَّ ينفع شخصية روائية، وصممت أن أضيفه إلى روايتي حين أكتبها، ولكنْ ترى ما موضوع تلك الرواية، وكيف أدخـــل إليها؟ وهل سيظهر فيها (ع. د) مشجعًا رياضيًا، أم حفارًا للقبور؟، أم الاثنين معًا؟

فجـــأة لمحت عمتي (ث) تأتي راكضة من شارع جانبـــي برغم وزنها الزائد، وعمرها الذي تجاوز الستين، وتوجَّستُ. كانت آخر مرّة رأيـــتها فـــيها منذ أكثر من شهر، حين زرتها بمناسبة عيد الأضحى، وشاهدت على سطح بيتها عددًا كبيرًا من أطباق الالتقاط، عرفت فيما بعـــد أنها محطات تقوية للإرسال، تخص إحدى شركات الاتصالات، واستأجرت سطح بيت العمة لتركيبها. وقال لي زوجها المدلِّك بفخر، إنـــه حصل على ذلك الامتياز بواسطة أشخاص ذوي نفوذ، ولم يكن مصادفة.

وقفت العمة أمامي وهي تلهث، رددت من بين لهاثها:

- الحقني يا عبدالله.. أرجوك ألحقني، زوجي في حالة إغماء.. سقط في صالة البيت فجأة، ولا أعرف ما حدث له.

لا بـــدَّ أنها أفسدت يومي، وأطارت أفكارًا كثيرة اكتسبتها من جلوســـي على طاولة اللامع (أ. ت)، وكنت سأغرق فيها، وأنا أبدأ سكّة الرواية، لكنْ لم يكن ثمة مفرّ من نجدتها، ولا أنسى برغم اختفائها عنِّـــي زمنًا طويلاً بحجة آلام الظهر، تلك الأيام التي ساندتني فيها حتى وقفـــت مـــن جديـــد. وجدت نفسي أقحم ساقي الخشبية في محاولة للركض، أنجزتها بصعوبة، وكنت أقف بعد كلِّ عدة خطوات، أتحسس الـــساق وأخشى أن تكون قد انفلتت، وحين دخلنا بيت العمة أخيرًا، كان الأمر مختلفًا تمامًا، وجدنا زوجها المدلِّك الرياضي، جالسًا في صالة البـــيت الكبيرة، يرتدي ملابس داخلية قطنية من ماركة جيل المصرية، يدخّن سيجارة برنجي محلية بتلذذ ويشاهد على تلفزيون موضوع أقصى الصالة، شريطًا سينمائيًا من إنتاج شركة فوكس للقرن العشرين، تبدو فـــيه الممـــثلة الأمريكية القديمة أفا جاردنر، فتاة هيفاء تصرخ على قمة جبل متصدع، بينما حبيب مفزوع يلقي إليها بحبل. لقد شاهدت ذلك

الـــشريط عـــدّة مرّات من قبل، وأعرف أن الحبل سينقطع، وتسقط النجمة على ساعدي الحبيب في نهاية سعيدة.

- ما الأمر؟

صـــرخت في وجهـــه وأنا حائر، وأحسّ حلقي يابسًا، ونبضي متسارعًا، وساقي اليسرى السليمة، تئنّ متوجعة.

كان المدلّك يضحك:

- حـــصلت بعـــد طول انتظار على دور رهيب في مسرحية "مسك الختام" التي ستقدَّم قريبًا على خشبة المسرح القومي. إنّه دور رجل عجـــوز يـــصاب بحالة إغماء حين يلتقي حبيبته بعد فراق طويل، وكنت أتدرّب عليه. لقد نجحت في الدور أليس كذلك؟

كـــان يخاطب العمّة ناظرًا إليها من طرف عينه، وابتسامة التبغ التي تغلف أسنانه الآن أكثر اتساعًا. وقد كان المدلّك مغرمًا بالتمثيل منذ شبابه، وشديد الاعتزاز بقدراته، لكنّه لم يحصل على دور قط من قـــبل بالرغم من مطاردته للفرق المسرحية، وإزعاجه لكتّاب الدراما والمخرجين. ومنذ أحد عشر عامًا دخل السجن عدة أيام، لأنه اقتحم عرضًـــا مسرحيًا كبيرًا، وممتلئًا بالنجوم حاملاً صندوقًا من الخشب، وقـــام بـــدور ماســـح أحذية أصم يطارد أحذية الممثلين وهو يصدر إشـــارات وأصـــوات مبهمة، ولم يكن ذلك الدور موجودًا في النص أبـــدًا. شـــاهدت العمّة حانقة تتحرك إلى آخر الصالة وتعود حاملة مكنـــسة طويلة ذات يد خشبية، والمدلّك يرفع يديه، يتّقي بهما ضربة أحـــسَّ بها على وشْك الوقوع، وأنا أنسحب إلى الباب قبل أن يبدأ العـــنف الـــذي كان جزءاً من روتين بيت العمّة، عنف مؤقت ووئام كـــبير. المدلّك يحب عمّتي بجنون وهي تحبه بجنون أيضًا، فقط تودّ لو أقلـــع عن التدخين، ومطاردة المخرجين المسرحيين ليوظفوه في أدوار

غبيّة. وأذكر أنها رجتني مرّة أن أحتجزه في أحد دهاليزنا المظلمة حتى تستريح من وجهه وأفعاله، لكنّها عادت وبكت ورجتني ألا أفعل. وكان المدلّك على وشك أن يختفي إلى الأبد، وبحوزتي تقرير من أربع كلمات فقط، كتبته بلا مشاعر ولا إحساس بالذنب: "يتخابر لصالح دولة أجنبية".

المدلّك شخصية روائية، لا بدَّ أنه كذلك، ولو وجده اللامع (أ. ت)، حتمًا سيكتبه في رواية تشبه رواية إيفا، يكون عنوانها: المسرحي الفاشل. فكّرت في العنوان مرّة أخرى ووجدته عنوانًا غبيًا وبائسًا، قد يرد إلى ذهن صاحبة الجينز باهت اللون أو ذهني أنا الذي لا أملك خيالاً، لكنّه لن يرد إلى ذهن كاتب كبير ولامع مثله. سأوسّع خيالي بلا شك في الأيام القادمة وسأعثر على عنوان يناسب الرواية التي يمكن أن يدخلها المدلّك زوج العمة. كنت أنجرُّ في الطريق ببطء عائدًا إلى بيتي، أشاهد الطريق مشغولاً بالفوضى، وعددًا من صبية المدارس المراهقين، يربطون كلبًا هزيلاً إلى جذع شجرة، ويركلونه بالأقدام، وعامود الإنارة الوحيد أمام بيتي يبدو مائلاً وعلى وشْك السقوط، وتحتك أسلاكه ببعضها بين حين وآخر، محدثة شررًا.

كنت أملك في خزانة ثيابي الموضوعة في غرفتي الوحيدة، بذلتين فصّلتهما منذ وقت طويل عند (خ. ر) الذي ينحدر من غرب البلاد، ويمارس الخياطة أمام أحد دكاكين الأقمشة في وسط السوق الكبير. كانت إحدى البذلتين زرقاء غامقة، والأخرى قطيفة رمادية. لا أذكر متى ارتديت بذلة آخر مرّة وفي أي مناسبة كان ذلك. ولا توجد في حياتي مناسبات تستوجب الأناقة، لكنّي أخرجت البذلتين من الخزانة. وجدت على الزرقاء بقعة كثيفة من دهن جاف، وخمّنت

أنني لا بدَّ قد ارتديتها في حفل غداء أو عشاء أكلت فيه لحمًا مدهنًا، بينما الرمادية نظيفة تمامًا، وتبدولامعة برغم عدم الاستعمال. نــزعت ثيابـــي وحاولـــت ارتداءها، لكنَّها دخلت إلى جسدي بصعوبة، وصـــمّمت أن أعـــود بهـــا إلى (خ. ر)، أوصيه أن يعيد تفكيكها، وخياطـــتها على قياسي الجديد بعد أن ترهّلتُ وبرز بطني الذي كنت أحتفظ به ضامرًا لفترة طويلة. كنت أودُّ تتبّع طقوس الكتابة عند (أ. ت)، ومنها طقس يكتب فيه بكامل أناقته في بهو فندق راق أو صالة للمغادرين في أحد المطارات. بالنسبة للكتابة عاريًا لا توجد مشكلة، والكـــتابة مشردًا في الشوارع، لا توجد مشكلة، والكتابة على سطح قطار أو حافة ترعة أو عند مغنية الزار أمّونة البيضاء، لا توجد مشكلة أبـــدًا، وأســـتطيع بما لي من صداقات قديمة بالسجون والسجانين أن أقـــضي شـــهورًا في السجن، إن كانت روايتي التي سأكتبها تستدعي ذلك. طويت البذلة، وضعتها في كيس من أكياس التسوّق الكبيرة، لا أعـــرف كـــيف دخل بيتي، ولم أتسوّق من قبل بحجم ذلك الكيس، حـــيث كان تسوّقي محدودًا جدًّا، ولا بد أن الكيس أتى برفقة العمة (ث)، حـــين كانت تزورني وتطعمني وتغسل ثيابـــي حتى استطعت النهوض من جديد.

وقفـــت أمـــام الخيَّاط (خ. ر)، والكيس في يدي. كان مشغولاً بتـــناول شـــطيرة من الجبن الأبيض تناثرت بعض محتوياها على قميص أصـــفر عالق بماكينته من دون أن ينفضها. رفع وجهه إلى وجهي ولم يبتـــسم. وضع الشطيرة على القميص ومد يدًا خشنة مقشرة الأصابع، لمـــصافحتي من دون أن ينهض من مكانه. في الماضي كان الخياط يترك ماكينته، يهرول باتجاهي حين أظهر في مرمى رؤيته. يحييني بعبارات لا يحـــيًّا بها إلا كبار الشخصيات في الدولة، ويبدو متلهفًا لأخذ قياساتي

بدقة، وغالبًا ما يسلمني قميصي أو بنطلوني الذي أحضره قماشًا، مخيطًا ومكـويًا قـبل أن أغـادر السوق، وأحيانًا يتنازل عن أجرته بإصرار غريب. لن أتذمر من ضياع وظيفتي وساقي، ولن أعتبر اليد الباردة التي مـدّها الخياط، ولم تبق داخل يدي سوى لحظة فقط، يدًا باردة. أنا في مهمـة تغذية الطقوس لأكتب رواية، والآن يعرف الجميع أنني خارج الخدمـة، ووطّنت نفسي على هذا. فتحت الكيس وسلمته البذلة طالبًا تعديلـها حتى تناسب قوامي المعدل، تسلمّها بلا حماس. وضعها أسفل مقعده المصنوع من البلاستيك الأبيض، وبحركات غير متحمسة أيضًا، ربـط مقياسًـا من القماش على صدري وخصري وفخذي وظهري، ودوَّن قـراءاته على ورقة متّسخة، كانت مكوَّرة على الأرض أمامه، التقطها وقام بفردها.

– عُد بعد عشرة أيام.

كان يقول وقد تناثر رذاذ مختلط بالجبن من فمه على البذلة.

– لماذا عشرة أيام في تعديل بسيط لا يستغرق أكثر من ساعة؟

– من قال لك تعديلاً بسيطًا؟ هذا أصعب من التفصيل الجديد.. عد بعـد عـشرة أيام أو خذ بذلتك واذهب إلى خياط آخر.. أمامي عمل كثير يا فرفار.

كانت المرّة الأولى التي يخاطبني فيها بلقبـي الذي لا يستخدمه إلا زمـلاء الخدمـة أو أصدقائي القدامى ممن اخترعوا اللقب أو عاصروا اختـراعه. لم يكـن ثمة حيلة أتعجل بها الخياط. والآن عاد إلى شطيرة الجبن، يغازلها ببطء ويقضم قضمات صغيرة، وقد ابتلّ القميص الأصفر العالـق بماكينته ببقعة دهن كثيفة لا أدري كيف سيمحوها فيما بعد. سأعود بعد عشرة أيام، وقد تمتد تلك العشرة إلى عشرين يومًا أو شهرًا كـاملاً. سـأؤجل طقوس الكتابة الأنيقة وأحاول العري أو التشرد،

وأظنني قد بدأت بالفعل، لأن أحد المارة توقف برهة أمامي ملقيًا نظراته على ساقي الخشبية، ثم مادًّا يده إلى جيبه، ليخرج منه قطعة نقد معدنية من فئة العشرة قروش، حشرها في يدي وانصرف وهو يردد: "دعواتك.. دعواتك يا حاج".

- 4 -

كـــنت أقـــف أمام مكتبة (أعلاف) التي يملكها المسيحي (ر. م)، وتعتبر واحدة من أقدم المكتبات في البلاد، ومصيدة سهلة كنا نعثر فيها علـــى الأعداء من دون مشقة أو مطاردات في الشوارع. ولطالما كنت مستغربًا من اسمها الذي لم يبد لي أبدًا اسم مكتبة، ولا حتى اسم جزارة يـــباع فـــيها اللحـــم. لكـــنَّ (ر. م) الكاثوليكي الذي لا يعرف عن الكاثوليكـــية إلا اسمها، كان حاضرًا بإجابته عن ذلك الاسم باستمرار، وظـــل يفسّره لكلِّ سائل طَوال أربعين عامًا هي عمر المكتبة.. "القراءة علـــف الـــذهن يـــا جماعة، علف الذهن يا أصدقاء، لا أعني أن القراء يـــشبهون البهائم، ولكنَّ الكتب تشبه العلف". وفي بحثها الدؤوب عن المـــواد الغريبة وغير المألوفة في كلِّ بقعة من بقاع العالم الواسع، وصلت قناة ديسكفري الفضائية مرّة إلى البلاد، وظهر المسيحي (ر. م) في أحد بـــرامجها التثقيفـــية، غارقًا في وسط كتبه، يحاول أن يفسر معنى الاسم بإنجليـــزية ضـــعيفة، ومقدم الحلقة يبدو صبورًا، يقلِّب في الكتب أثناء الحوار، ويسأل عن آخر علف وصل إلى مكتبته، ومن هي أشهر عنـــزة تتغذى من أعلافه. وبالرغم من أن تلك الحلقة لم يعد بثها قط بعد ذلك، إلا أنها ظلت فترة طويلة حيَّةً في المكتبة، تُبث من جهاز فيديو قديم كان مربوطًا إلى تلفزيون قديم أيضًا، في ركن واضح من أركان المكتبة.

كانت للمكتبة واجهتان زجاجيتان تطلان على الطريق العام، في مكـــان مـــزدحم من وسط البلد، وتحتضنان عشرات الكتب التي كان

بعضها من إنتاج كتاب محليين، ودور نشر محلية، وبعضها جُلب من خارج البلاد بطريقة شرعية أو غير شرعية. شاهدت كتبًا للطبخ رسمت على أغلفتها موائد عامرة لا تشبه موائدنا التي نأكلّ منها: كتبًا في فن التطريز وكمال الأجسام، والعلاج بالرقية والحبة السوداء، وكيف تصبح قانونيًا من دون أن تدرس القانون، وامتلكي خصر ناعومي كامبل خلال أسبوعين فقط بلا ريجيم. وشاهدت نسخة وحيدة من كتاب كان يبدو أنه واسع الانتشار، لأن ورقة مسطّرة كتب عليها: النسخة الأخيرة. كانت موضوعة بجانبه، كان اسمه (شرق وغرب وضرب)، لمؤلف لم أسمع به من قبل. والواقع أنني لم أكن ضليعًا في معرفة المؤلفين حتى أعرف إن كان صاحب الشرق والغرب والضرب، مشهورًا أم لا. قرّرت أن أشتري ذلك الكتاب فورًا وأحاول قراءته كاملاً مهما كان موضوعه، إضافة إلى رواية (على سريري ماتت إيفا) التي جئت خصيصًا من أجلها، وربما يتذكر المسيحي أنه كان يعرفني من قبل، فيهديني كتبًا أخرى أتسلّح بها في مشواري الذي بدأته: مشوار كتابة رواية. لم تكن إيفا موجودة على أي من الواجهتين الزجاجيتين لا حية ولا ميتة، ولا عثرت على رواية أخرى، وأعرف أن ثمة رفًّا مخصَّصًا للروايات يوجد داخل المكتبة طالما نبشته من قبل لأسباب مهنية لا علاقة لها بالقراءة أو الكتابة.

دخلت إلى المكتبة في ثقة، كانت ثمة مراهقة مكشوفة الرأس وترتدي عباءة سوداء مطرزة الحواف بلون ذهبي، تسأل عن آخر إصدار من روايات عبير الرومانسية، وشاب شديد النحافة، يقلب في كتاب اسمه (حركات التحرر في العالم، ما لها وما عليها)، ورجل في منتصف العمر، يحتضن كتاب (الجنس في حياتنا) الذي كان من

الكـــتب غـــير المــصرح بها، وتباع خفية، وهو يفتح حافظة نقوده، والمـــسيحي (ر. م)، يتنقل بين الثلاثة، يفتح فمه ليرد على استفسار المـــراهقة، أو يستعد لتسلُّم ثمن (الجنس في حياتنا)، أو يمتدح كتاب حـــركات التحـــرر مشجعًا الشاب النحيل على الشراء. نبهه صوت ســاقي الخـــشبية تـــزحف على بلاطه المغسول، وتفوح منه رائحة الديتول، فالتفت بسرعة، وكأنه تشاءم أو امتعض أو تنرفز، لأنه قبض الـــثمن مـــن الـــرجل الذي اشترى الكتاب الجنسي مسرعًا. خاطب المـــراهقة في غلظة، بأنه لا يبيع روايات سخيفة مثل هذه في مكتبته، وخطـــا نحو الشاب النحيل ملتقطًا الكتاب من يده، في نفس اللحظة الـــتي الـــتقط فيها مفاتيحه من الطاولة، ونظر إلى ساعته العتيقة من ماركة جوفيال، وكأنه يهم بإغلاق المكتبة.

قلت ببطء وثقة وأتعمّد عدم تحيته:

أعطـــني تلك النسخة المتبقية من (شرق وغرب وضرب)، ورواية (على سريري ماتت إيفا) من فضلك.

- ماتت من؟

رفع حاجبيه في استغراب.

- ماتت إيفا.. ألا تسمع؟

قلت بثقة أكثر.

- ماذا لديك ضد كاتبها؟

كان يسألني بصوت لم يكن يجرؤ ليصبح غليظًا وعدائيًا هكذا في الماضـــي. ولطالمـــا حـــرّرت له مخالفات كبرى اقتربت به من أبواب الـــسجون، أغلقـــت مكتبته أيامًا طويلة، وصادرت كتبًا عديدة كان يعتمد عليها في تحصيل بعض الربح، وآتي في كلّ مرّة لأجده مبتسمًا ونـــشيطًا ورائق المزاج، ويركض بين زبائنه وغلاية الماء الموضوعة في

أحد الأركان، ليصنع لي قهوتي التركية بسكّر متوسط، وربما ينصحني بالقـــراءة، ويدعـــوني للغداء في منـــزله وأهداني مرّة كتاب (السحر وتجـــارب الـــسحرة) حـــتى أستمتع. وحين تلفزته قناة ديسكفري الفـــضائية، حكـــى باستفاضة مستخدمًا إنجليزيته الضعيفة عن تعاون الـــسلطة المحلية معه وأنها لم تصادر من رفوفه كتابًا قط، وكان كاذبًا بالطبع.

- تعرف أنني لست في الخدمة.

قلـــت رادًّا على استخفافه، وأحسُّ بشيء من الضعف، وأنني ما كان يجب أن آتيه متقاعدًا وبتلك الساق البذيئة، وكان يجب أن أرسل لـــه أحد زملائي الذين ما زالوا يعملون وينبشون ويستطيعون إغلاق مكتبـــته وفمه الذي يخاطبني الآن بتلك الوقاحة. لكنَّ زملائي أنفسهم للأسف ما عادوا زملاء ولا متوافرين من حولي، وما عادوا حتى يردُّون علـــى هاتفـــي حين يظهر رقمه ملحًّا على شاشات هواتفهم المحمولة. وحـــين أتذكـــر أحيانًا زميلي (ص. ج) الذي أصيب بالشلل الرعاش وفقدان الذاكرة، من جراء الحادث الذي تعرضنا له معًا، واذهب لألقي علـــيه نظرة، أجد امرأته تبكي وحيدة، وتتحدث عن فرار الجميع من حـــول زوجهـــا الذي أفنى عمره في الخدمة، ولم يجد من يمد يده حين احتاج إلى نقل للدم بسبب الأنيميا.

لن أبتئس.. أترجَّى البؤس أن يرحل حتى أستطيع بداية مشروعي الجديد.

- نعـــم.. نعم.. لست في الخدمة أعرف.. لكنَّ دودة خدماتكم لا تمـــوت بـــسهولة.. أعرف كثيرًا من زملائك خارج الخدمة منذ عـــشرين عامًا، وما زالوا يأتون وينحنون تحت طاولتي، يوسِّخون الكتب.. لماذا تريد كتاب إيفا يا فرفار؟

صدمت للمرّة الثانية من لغته، وصدمت أكثر من استخدامه للقب لم يكـــن من ضمن استخدامات العامة أمثاله، و لم يستخدمه حتى حين كان صديقًا مفترضًا تصادقنا قسرًا أنا وهو.

أحسست أنني قد أجن أو أموت أو أفقد رغبتي في كتابة الرواية، من تلك الصدمات المتتابعة إذا ما تركتها تتغلغل في أعصابـــي، ومن ثم تجـــاوزت عدائيته، وطلبت الكتابين ثانيةً وفي لهجة قاطعة هذه المرّة وأنـــا أخـــرج حافظة نقودي، ألوّح بها أمام وجهه الذي كان وجه سبعيني مهلهل التقاطيع وفيه شامة بنية على الجانب الأيسر. خطا (ر. م) إلى الواجهة الزجاجية التي بها كتاب (الشرق والغرب والضرب)، فـــتحها من الداخل بمفتاح صغير، التقط الكتاب وأغلقها مرّة أخرى، ثم قـــصد رفًّـــا مكـــتوبًا عليه بخط متعرج: "روايات مختلفة.. عربية ومتـــرجمة". ســـحب مـــن وسطه (على سريري ماتت إيفا). وضع الكـــتابين داخل كيس من البلاستيك، مكتوب عليه بالأزرق: مكتبة أعـــلاف، ثم ســـلمني الكيس، وتسلّم منّي مبلغًا ليس سهلاً، جعلني أســـتغرب من أولئك القراء المجانين الذين يبدّدون نقودهم في القراءة، وخفـــت أن أصبح واحدًا منهم ولا أملك سوى معاش التقاعد الذي يأتيني من إدارتي السابقة، وإيجارًا قليلاً يأتي من بيت صغير ورثته عن أبـــــي وتـــسكنه عائلة مهاجرة من غرب البلاد المشتعل بالحروب. تملّكـــني الفضول وألقيت نظرة على رفّ الروايات وكان ممتلئًا بأغلفة ملـــونة وجاذبة، وخلت للحظة روايتي التي سأكتبها، تحتل مكانها في ذلك الرف قريبًا.. قريبًا جدًّا.

خـــرجت مـــن المكتبة إلى الطريق، وأنا أتشوّق إلى البيت حاملاً واحـــدًا من أسلحة الكتابة. سأفكّك السلاح بتأنٍّ، وسأذهب إلى قصر الجمّيز مرّة أخرى بعد أن أنتهي، أجلس إلى طاولة (أ. ت)، أناقشه في

موت إيفا على سريره أو سرير بطله، وأنا واثقٌ بأنّه سيستمع إليّ في غطرسة، ويستمع الآخرون احترامًا لاستماعه، ولن تتوجَّس صاحبة الجينز باهت اللون من ساقي الخشبية هذه المرّة وينبض صدرها بعنف. ستعتاد وجودي بينهم كما لو كنت واحدًا منهم. كانت المراهقة التي سألت عن روايات عبير ما زالت تتسكع عند واجهة المكتبة، تتفحصها كتابًا كتابًا ويدها على خصرها، ورجل مسنّ يرتدي قميصًا أبيض عليه شعار شركة موبيل للنفط، يقف خلفها مباشرة، يتأملها أكثر مما يتأمل الكتب ويلعق شفتيه بلسانه، والشاب النحيل الذي لم يشتر كتاب حركات التحرر، واقفًا في الركن الآخر من الطريق، وبرفقته صبية تضحك بجرأة وترفع يدها بين حين وآخر، تعيد تغطية رأسها الذي ينزلق من فوقه غطاء الحرير الأخضر.

كان المشجع حفار القبور (ع. د)، يتسكَّع هذه المرّة أيضًا أمام بيتي والميدان الرياضي، ولم تكن ثمة مباراة في ذلك اليوم تبرر وجوده. صحيفته مفرودة بين يديه، ويتأملها بشغف وهو يبتسم، ونادى بصوته الكبير الذي جعله مشجعًا مميزًا، مجموعة من الشباب كانوا يتسابقون على مقربة. أغرق وجوههم في الصحيفة غير عابئ بذلك الاستياء الذي ظهر على تلك الوجوه، وخفت أن يكون قد جن من جراء التكريم الذي جاءه فجأة، ولم يكن لديّ وقت لأتأكد، ومن ثم أسرعت بالدخول إلى بيتي وأغلقت بابه بالمفتاح، لكنَّ أحدًا لم يطرق.

جلست على أحد الكراسي الجلدية في صالتي الضيقة، بعد أن نزعت ساقي الخشبية عن جسدي، ووضعتها على كرسي آخر. فتحت كيس الأعلاف، وأخرجت الكتابين في شوق، كان كتاب

(الـــشرق والغـــرب والـــضرب) المترجم عن اللغة الإنجليزية، مجموعة مـــشاهدات مختلفة، سجَّلها كاتبه الأمريكي في رحلات دؤوبة حول العـــالم امتدت عامين، كما كتب على غلافه الأخير. وقد نبهت كلمة الغـــلاف القارئ المفترض للكتاب، أنَّ الضرب ليس دائمًا بالعصا، أو السوط، ولكنْ يكون أحيانًا باللغة. ستضربك لغة هذا الكتاب عزيزي القـــارئ بلا رحمة، فاحمِ ذهنك جيدًا قبل أن تبدأ. استسخفت تلك الكلمة التي لم أفهم مغزاها حقيقة، وفكّرتُ أنني لن أسمح بكتابة مثلها أبـــدًا على غلاف كتابـــي. كانت رواية إيفا الآن بين يدي، أقلِّبها في وله، وأتأمل لوحة الغلاف التي تمثل فتاة شقراء مبعثرة الشعر، ترقد على ســـرير وردي بين قلب أحمر ونصل سكين. إنها ترجمة حرفية بلا شك للمـــوت والحياة اللذين ذكرهما (أ. ت)، حين قال إنهما يرقدان على سرير واحد، متغطّيان بنفس اللحاف.. الآن، فقط، فهمت عباراته التي بدت لي عصيَّة على الفهم حين سمعتها في قصر الجميز، لكنَّه ليس فهمًا كـــاملاً وسأسعى لامتلاكه بلا شك. لم تكن الرواية ضخمة من نوع تلـــك الكتب التي تجعلك تقلب الصفحات الأخيرة أو التي في الوسط أولاً، كمـــا أسمع بعض المثقفين يقولون ذلك، وبدت لي مشجعة جدًّا لقـــراءتها، والدخول عبرها إلى عالم الكتابة، وربما أجهد نفسي قليلاً، وألتهمها في نفس واحد، كما يقولون. أغلقت هاتفي المحمول، تناولت ســـاقي الخـــشبية، ربطتها إلى جسدي مرّة أخرى، خطوت أولاً إلى الهاتـــف الأرضـــي، انتزعت أسلاكه من مكانها، ثم إلى الركن الذي أســـتخدمه مطبخًا، صنعت كوب شاي ساخنًا، أضفت إليه قليلاً من النعـــناع. وضـــعته أمامي بعد أن رشفت منه عدة رشفات، ثم فتحت الكـــتاب. هـــربت من رقم الإيداع وحقوق الطبع المحفوظة والتصميم والجرافيك وعبارة التحذير من النسخ أو إعادة الطباعة، بسرعة ودخلت

مباشـــرة إلى إيفا.. إلى مدخلي المتاح في الوقت الحاضر لكتابة رواية، وبـــدأت أقرأ غير عابئ بالطرق المباغت على الباب، وصوت المشجع، حفّـــار القـــبور يرجوني أن أفتح كي أرى صورًا جديدة لحفل تكريمه نشرها صحافة اليوم:

- 5 -

إنَّها القُشَعْريرة يا أصدقاء

دعــوني أصف لكم القشعريرة، أزركشها بثياب فتنتها، وأرافقها أمــامكم على مدرج عرض أزياء فاخر شبيه بالذي طالما مشت عليه كلوديا شيفر، أو فتاة طاجكستان اليانعة لينا باروف.

كــنت في موســكو تلك السنة، أشارك في ملتقى سنوي تنظمه أكاديمية السينما هناك، وتدعو إليه مخرجين شبابًا من شتَّى بقاع العالم، وحــتى عالمنا البعيد غير المتحضر، أو المعترف به سينمائيًا. لم أكن في الحقيقة غريبًا على موسكو ولا ضيفًا منبهرًا يتلمس الطرق ويتلفَّت في حــذر، فقد درست فن الإخراج فيها، أجدت لغتها وغازلت نساءها، وتــصعلكت في أزقتها وميادينها الحمراء والصفراء، صادقت ضحكها وغوايتها وعدت إلى بلدي لأتحطم. لم تكن ثمة سينما لأتوظّف مخرجًا فيها ولا حتى كومبارس تافهًا، وما أنتجت طَوال تلك السنوات الخمس التي قضيتها بعد أن عدت، سوى شريط تافه، عن باعة الثلج المشردين في موســم الــصيف، حشرت فيه عددًا كبيرًا من أقاربــي وأصدقاء أقاربـــي، تشرَّدوا بلا حنكة في شوارع ممتلئة بالحفر، وأرادوا الظهور في شريط لم يعرض قط، وظل حبيس أدراجي حتى تآكل. وبرغم ذلك لم تنسني موسكو، وتدعوني لحضور ملتقاها السنوي بانتظام.

كنت أجلس في بهو فندق (إيروستار) مكان استضافتنا. إنه أحد الفــنادق العتــيقة في المدينة، بني في زمن روسيا القيصرية وكان مأوى

للجـــنود المحـــاربين، ونساء المتعة وبعض أثرياء الحرب الجدد، يغشونه للثرثـــرة والتسرية عن النفس، ثم رمِّم بنيانه عدة مرّات، ورمِّمت سمعته بإدخاله إلى لائحة الفنادق التراثية، والآن يستضيفون فيه الثقافة الزائرة مـــن كـــلِّ مكان، أو أندية كرة القدم التي تشارك من حين لآخر في دورات رياضـــية. وحـــين كنت طالبًا في موسكو، كنت أغشى ذلك الفـــندق كـــثيرًا، أجلس في بهوه المريح، أراقب حمامة بيضاء كبيرة من الورق المقوَّى، معلّقة على سقفه مواجهة للمدخل، تتأرجح كلّما انفتح الـــباب كأنها تحيي القادم الجديد، أو أحظى بابتسامات عطرة وملونة، تطلقها سائحات أوروبيات أو آسيويات، ربما ينشددن إلى لون بشرتي غير المألوف في بلدانهن في ذلك الحين.

كـــان برفقتي (سيدي ولد البني)، مخرج موريتاني من أبناء دفعتي، تحـــضَّر في موسكو وعاد إلى وطنه ليتحطَّم أيضًا، ويواظب مثلي على حضور الملتقى كلَّ عام، لكنَّه كان أفضل حالاً مني حيث عثر منذ عدة أشـــهر علـــى طـــاقم شـــركة إنتاج فرنسية، جاءوا لتقصِّي الصحراء وغموضها وعالم رجالها ونسائها، وظَّفوه مساعدًا للمخرج وأعادوا إليه قلـــيلاً مـــن الأحـــلام. كان ولد البني يتحدَّث بلا توقف عن تجربته الفرنسية، وكيف أنشأ لهم الشريط من ألفه إلى يائه، ودلَّهم على أسرار لا يعـــرفونها، أسرار فتنة النساء وفحولة الرجال وكيفية ملء الأرداف وتضخيم الأثداء، وعدَّل من سيناريو الشريط حين أضاف إليه أغنيات عذبة بصوت المغنية فاطمة بنت لقّاي، ورقصات تراثية يؤديها الرجال والنساء معًا في تناغم وهم متماسكون.

- وهل عرض الشريط في فرنسا؟

كـــنت أســـأله، وأمنِّي نفسي بشركة مماثلة، ربما تسمع مصادفةً بتـــراث عـــرب (الـــبطانة) رعاة الإبل في وسط بلادي، أو رقصات

(المـــردوم) الهمجـــية في الغرب، أو تسعى لتوثيق تراث الجنوب بكلِّ بشاعته ووحشيته في شريط يعرض في أوروبا، وأكون مساعدًا لمخرجه وصانعًا حقيقيًا للقطاته.

- حـــتى الآن لا.. لكـــنْ ربما في الشهر القادم أو بعد شهرين على الأكثر، وسأحضر العرض في باريس.

ردّ وفي وجهـــه فـــرح ضاج، ويبدو زيُّه الوطني المكوَّن من تلك العباءة الزرقاء المزركشة التي يرتديها فوق بذلته الرصاصية، أنيقًا برغم غرابته، ولفته للأنظار في ذلك المكان البعيد.

كـــان (أليكساندر يحيى)، يحوم في المكان بزيِّه المكوَّن من قميص أحمر وسروال أسود، حاملاً أطباقًا ممتلئة أو فارغة، أو رادًّا على شكوى زبون من رداءة القهوة، وطعم الفودكا الذي يشبه طعم مسمار صدئ. إنـــه راقـــص بالـــيه معتزل، ونادل قديم في فندق (إيروستار). ولطالما اســـتغربت من اسمه، وكيف أمكن أن يكون بذلك النشاز، أن يصبح أليكـــساندر ولدًا ليحيى ويحيى والدًا لأليكساندر، لكنَّ النادل رد على اســـتغرابـــي بكلِّ هدوء يبدو أنه تدرب عليه من كثرة ما سأله العرب الـــذين يصادفهم، أو الروس أنفسهم الذين ينتمي إليهم. هو عربـــي مثلي بالرغم من أنه لا يعرف شيئًا عن بلاد العرب، ولم ير والده الذي زرعه نطفة حتى وأخبرته والدته، أنه كان يدرس طب الأسنان ورحل عائـــدًا إلى بلاده، وتلك السمات القوقازية التي يحملها إنما هي جينات والدته، وتأثير البيئة التي يعيش فيها. ولم أقتنع أبدًا بجوابه، ظللت أتذوقه هكذا.. اليكساندر يحيى صاحب الاسم الغريب.

فجأة ظهرت القشعريرة عن بعد ثم اقتربت رويدًا رويدًا..

كانـــت شـــقراء بـــضفيرة ذيل الحصان، معقودة بشريط أحمر وتتأرجح على ظهرها، ترتدي قميصا قصيرًا زاهي الألوان، صيَّرها مثل

لوحة في معرض للمحترفين، وتنتعل صندلاً من الجلد لا تسمع له ضجيجًا في ذلك الرخام الذي تضج فيه حتى الهمسة. على عنقها لا شيء وكلُّ شيء، على يديها لا زينة، ولكنْ كلُّ الزينة، وعلى وجهها تقاطيع لو عممت على نساء الأرض، لاختفت كلمة القبح والقبيح من قواميس اللغات. وحين حاذتنا في مشيها وانفلتت إلى أحد الممرّات، كان ثمة عطر فاتن ورهيف رش من قارورة.. قارورة بشرية.

أمسكني الموريتاني ولد البني من يدي وأمسكته من يده، ضغط على يدي وضغطت على يده، ووقفنا كلانا فجأة، نحدق في الممر الذي يحتضن مشيها المتكسّر ونرتعش. وفي اللحظة التي امتلكت فيها بعضًا من الوعي وبعضًا من الثبات، أفلتُّ يد الموريتاني وركضتُ إلى أول الممر منساقًا وراء العطر، وكان خاليًا. كنت من الذين يعرفون موسكو جيّدًا كما قلت، والذين اكتشفوا كهوفًا للضياع هناك لم يكتشفها أهل البلاد أنفسهم. ويحضرني وجه عازفة الجيتار البرونزية من مدينة كييف (ناتالي) كما هو مدوَّن في بطاقتها، وناتي كما كنت أناديها ويعجبها ذلك النداء، تلك التي أذهلت الجميع بوجهها وأداء أصابعها في إحدى الحفلات العامة، وأبت حتى أن تبتسم، أو توقع على أوتوغرافات الإعجاب التي قدمها لها الصغار والكبار بمن فيهم مشرفو الحفل. واستطعت أن أعثر على ثغرة في جدارها الصلد حين حدثتها عن بساط الريح وبحيرة الذهب في وسط قصر السلطان شهريار، وأنا أستند بعناد إلى باب غرفتها في الفندق الذي تقيم فيه. وكانت رفيقة سلسة عاشت معي عدة أشهر بعد ذلك، قبل أن تفر إلى أمريكا، الوطن الحر كما يسميه الروس همسًا، وتصبح واحدة من أعتى مناهضي الشيوعية، تناهضها بجيتارها وأشعارٍ من نظمها ونظم مناهضين آخرين، ثم ليصلها الموت حتى جحرها الضيق في بروكلين، ويعثر عليها بواسطة

أعـــضاء الفرقة التي تعمل فيها، ميتة برصاصتين صنعتا في روسيا. لقد بكيت حين سمعت بموتها من إذاعة أمريكية كانت تبثّ أغانيها وأدمنت سماعها، وأذكر أنني نسيتها وغيرت موجة الراديو إلى محطة أخرى بعد عـــدة أشهر من الحادث، وأذكر أنني عشت في رعب قاتل زمنًا طويلاً بعد أن فرَّت، أخاف أن أعدَّ مثلها مناهضًا، و لم أكن سوى ضيف تافه مـــن العالم البعيد، عاش لذّة طارئة حتى انتهت ولذّات طارئة غيرها.. هكذا.

عدت إلى مقعدي بجوار مخرج موريتانيا، وجدته يردد أغنية راقصة مـــن غـــناء مطربتهم فاطمة بنت لقّاي، ويهز رأسه في نشوة.. كانت عيناه تتابعان امرأة بدينة تتحرك في وسط بهو الفندق جارة قدميها، ولا بـــدَّ أن ظهورها اقتلعه من تلك الرعشة التي ارتعشها معي، وأعاده إلى ثقافة وطنه المتجذرة في الدم حيث البدانة ليست من أدوات السحر عند المرأة فقط، لكنَّها السحر نفسه.

- هل رأيت تلك الفتاة من قبل؟.. أقصد التي مرت منذ قليل.

سألته بصوت مرتعش، وكنت آمل ألا يكون قد رآها إلا في تلك اللحظـــة التي ظهرت فيها واختفت وسمَّرتنا على مقعدينا معًا. لا أريده مـــتفوّقًا علي حتى في رؤية فتاة لا أعرف إلى الآن سوى أنها قشعريرة، قـــد تـــصبح دفئًا في يوم من الأيام وقد تستمر قشعريرة حتى يطفئها الـــزمن. لم يكـــن سيدي ولد البني يسمعني، أغنية بنت لقّاي في حلقه بمقطـــع حمـــيم وصل إلى حد العناق، والبدينة التي يسمِّر نظراته عليها واقفـــة الآن في وسط البهو، ممسكة بخريطة كبيرة نشرتها أمام وجهها، وتـــبحث بداخلها عن شيء خمَّنت أنه متحف عتيق أو نصب لجندي مجهول، في مدينة تمتلئ بالمتاحف وبوابات التاريخ ومجهولي الحرب. "لا بـــدَّ أنها سائحة من رومانيا".. هكذا قلت في نفسي، تشبه الرومانيات

جدًّا وتذكرني بطبيبة عيون في بلادي، كانت زوجة لصديق عاد بها من رومانيا ووطّنها في البلاد.

- هل رأيتها من قبل؟

كـــان الموريتاني قد أنهى أغنية بنت لقّاي الحميمة قبل أن تكتمل، ونفـــخ حلقه بأغنية أخرى تتحدث عن وردة بنفسجية في يد العاشق، ويـــركض بهـــا نحو المعشوقة. رأيته ينهض واقفًا، يعدل عباءته الوطنية المزركـــشة علـــى جسده جيّدًا، وكان طويلاً جدًّا، ونحيلاً جدًّا ويضع نظّارة ذات إطار ذهبـــي على عينيه، ووصل حتى محل بيع الورد الملحق بـــبهو الفندق ضمن محال عديدة لبيع التحف والتبغ وتغيير النقود، في ثوان معدودة، وخرج حاملاً وردة بنفسجية مغلفة ببلاستيك شفاف، قـــدَّمها للبديـــنة التي خلتها رومانية، ثم اتّجه برفقتها إلى باب الخروج، وكانت الخريطة قد سقطت على الأرض، لكنْ لا يد التقطتها.

جـــاءني أليكساندر يحيى يمشي على مهل، وكنت قد أشرت إليه أثـــناء تنقله المستمر بين الطاولات عدة مرّات، ولا يلبّي. والقشعريرة تـــزداد، وعيناي أصبحتا مغرمتين بالممر الذي سلكته الشقراء. تعال يا أليكساندر.. اظهري يا شقراء. كانت بين يديه تحفة فضية من تلك التي تكثـــر على طاولات الفنادق ولا أعرف لها مغزى أبدًا، ولا أذكر أنني تأملت واحدة من قبل قط. هي نظرة عابرة ألقيها عليها ولا شيء آخر. كانت تمثل ثورًا بثمانية قرون وعينين واسعتين جدًّا، لمّعها بفوطة حمراء في يده ووضعها أمامي.

- من هي الفتاة الشقراء التي مرّت من هنا منذ قليل وترتدي قميصًا ملونًا وصندلاً من الجلد؟

ســـألته وكنت واثقًا تمامًا أنه رآها وأنه يعرفها وأليكساندر يحيى كما أعرفه ليس نادلًا عاديًا يتنقل بين الموائد بلا تركيز، لكنّه يملك عيني

ذلــك الثور الذي وضعه أمامي، وأخبرني مرّة في بداية تعرفي إليه، أنه يحسُّ بالجمال قبل أن يراه، وكان أثناء تأديته رقصات الباليه، وقبل أن يــصبح نــادلاً في (إيروستار)، يتوقف برهة ليوجه إحساسه نحو باب المسرح، وتدخل في نفس اللحظة امرأة فاتنة.

- إنها إيفا.

رد بهــدوء. لكنّني لم أشبع، القشعريرة لم تنطفئ، وأحس بالغيظ مــن وجهــه القوقازي الضخم، وبقعة سخرية أحسستها تتكون على عينيه.

- ما هويتها يا أليكساندر؟
- مــوظفة في العلاقــات العامة بالفندق، انضمَّت إلينا منذ شهرين فقط، ولا أعرف عنها أكثر.

غــادرني بسرعة متجِّهًا إلى طاولة أخرى ضج شاغلها من كثرة الانــتظار، وسمعته يسبّ ويلعن. وعدت إلى الممر الممتد أتأمل فراغه، وأســتحثُّ بنظــراتي الأبواب المتراصَّة على جانبه أن ينفتح منها باب وتخــرج منه تلك الإيفا الملوَّنة. موظَّفة في العلاقات العامة توظفت منذ شهرين، وتبدو مشيتها المتكسِّرة شهادة عليا في فن العلاقات. لا أدري مــا أصــابني ولا استطعت السيطرة على الضجيج الذي أحمله داخل مشاعري في تلك اللحظة. لم أكن ذلك الطالب المقيم في البلد كي أتبع غــواية، وكــنت ضيفًا عاديًا سيقضي بضعة أيام نظيفة بين سينمائيين نظــيفين، ويــرحل إلى غباره منتظرًا الموت أو حظًّا مباغتًا مثل حظ الموريتــاني ولد البني. أعدت التفكير في هذه النقطة ولم تفلح محاولتي تثبيــتها في الــذهن، والانطــلاق لركوب الحافلة التي ستقلُّنا إلى مقر الملتقــى. وأرى العديد من زملائي المدعوين قد تأنقوا وحملوا حقائب صــغيرة من الجلد، ويتجهون إلى باب الخروج. أنا ضيف إيفا الملوّنة..

وولـــد البني ضيف الرومانية التي ذكرته بثقافة بلاده وحولته إلى سائح. ســأوثق صـــلتي بالممر أكثر، وإن دعا الأمر أصادقه عنوة، أطرق كلّ الأبواب حتى تنفتح، ويشرق من أحدها وجه إيفا.

كانـــت فـــد مضت ساعتان وأنا في جلستي التي سميتها الجلسة صـــديقة ممـــر إيفـــا، أهم بالنهوض أحيانًا لأبدأ طرق الأبواب وأرى استجابتها، ثم ما ألبث أن أعود إلى جلستي. ساعتان ليستا وقتا طويلاً إذا مـــا وُظِّـــف تحـــت إمرة القلب، وكنت قد فكّرت في مئة حيلة أســـتخدمها لاســـتمالة تلـــك الملوَّنة ولم أجد واحدة تصلح. فلم يعد شهريار القابض على ألف ليلة وليلة، سلطانًا آمرًا ترهبه شهرزاد القوية المعتدّة بنفسها في هذا الزمان، ولا بساط الريح حامل الأحلام في زمن الخرافة، مواصلة تختصر المسافة بين النيل ونهر الفولغا. وبالطبع لا أملك اسمًا ولا شريطًا ناضجًا ذا وقع أتفاخر به أمام موظفة علاقات عامة، لا يخطـــر بـــبالها أبدًا أنها قد تكون دخلت قلبًا أو زيَّنت غواية وهي تعبر ردهـــة الفندق الذي تعمل فيه. حتى شريطي الوحيد الذي تشردت فيه العائلـــة وباعـــت الثلج في موسم الصيف قد تآكل ولم أحضره معي. كنت أعتبره ذكرى وأخاف أن يضيع وتضيع الذكرى.

اظهري يا إيفا. اخرجي من أحد الأبواب يا إيفا..

– 6 –

– افتح يا عبدالله.. افتح يا فرفار.. أرجوك.

كـــان صوت المدلِّك زوج العمة (ث)، وقد ارتفع بدرجة خفت فـــيها أن يظن الجيران برغم عدم حبهم لي وتكشيرهم في وجهي كلّما صـــادفوني في الطـــريق، أنني ميت بالداخل فيسعون إلى كسر الباب لاكتـــشاف جثتي. وقد بدأ المدلِّك يطرق الباب، ويصيح مناديًا علي، وأنـــا أقترب من نهاية ذلك الذي كتب عليه الفصل الأول، من رواية (علـــى سريري ماتت إيفا)، أول رواية أبدأ قراءتها في حياتي، وتشدني بالرغم من أنني لم أفهم الكثير من أجوائها الغريبة ولغتها المطلسمة، وأن أحـــداثها تقع في بلاد لا أعرف عنها شيئًا. أقرأ، وأتوتر، أصيح: يا ابن الكلب، بين لحظة وأخرى، وأواصل القراءة، أضحك أحيانًا من سلوك الموريـــتاني ولد البني حين لم يلتفت كثيرًا إلى الشقراء الجميلة، وانبهر بامرأة بدينة، اصطادها بوردة، وأحس بمدى تخلُّف الوظيفة التي عملت فيها أكثر من عشرين عامًا وانتهت بساق خشبية. والروس وصلوا إلى ناتـــالي في بلد الحريات واغتالوها ببساطة، بينما يفلت كثير من الخونة مـــن مـــراقبتنا حين ينحشرون في باص مهلهل، أو يتسرّبون في الأزقة الملتوية أو حتى خلف ظهور جدرانهم. لن أبكي على عازفة الجيتار ناتالي أو ناتي كما فعل بطل الرواية ضعيف الشخصية. أعتبرها خائنة لوطنها، باعـــته بـــسهولة وتستحق ما جرى لها، ولو وقعت في يدي شخصيًا لكـــسرت رقبتها. لكنْ ما جعلني أتوتّر حقيقة هو التفكير في إيفا أكثر

من بطل الرواية نفسه، والذي لا أعرف اسمه حتى الآن، سأسميه (م. م) في الوقت الحالي حتى يرد اسمه فيما تبقى من القصة التي سأعاود إكمالها حتمًا بعد أن أفتح للمدلِّك، وأرى سبب قدومه وصراخه أمام بيتي. وقد كان اسم (م. م) من الأسماء التي ما تزال عالقة بذهني بالرغم من أنني كنت أراقب صاحبه اليساري منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، حتى أقلع عن السياسة ويعمل الآن سمسارًا في سوق السيارات المستعملة. لقد كان (م. م) مثقّفا درس إحدى المصائب في موسكو وعاد ليزعجنا، هل تكون هذه قصّته يا ترى؟.. سأتحرَّى ذلك.. نعم سأتحرَّى بعد أن أكمل القصة لأقارنها بالقصّة الحقيقية لليساري المعتزل... خارج الخدمة لكنَّ دودة الخدمات لا تموت بسهولة كما قال المسيحي صاحب المكتبة.

ارتديت ساقي الخشبية ببطء، وقد تعكَّر مزاجي تمامًا، واتجهت إلى الباب وألتفتُ ورائي بين لحظة وأخرى، أتأمل غلاف إيفا التي تركتها في لحظة مشوِّقة، في حزن.

كان المدلِّك زوج العمّة يقف نافد الصبر أمام الباب، يرتدي ملابس رياضية مفصّلة على شعار فريق المارد الذي يعمل مدلِّكًا له منذ أكثر من أربعين عامًا، وكان شعارًا ذا لونين أبيض وأزرق. على كتفه حقيبة رخيصة من القماش الأسود الداكن، وتنتعل قدماه حذاء رياضيًا تقطعت بعضٌ من خيوطه. وكان المشجع حفار القبور ما زال موجودًا في المكان، وقد جلس الآن على سطح حجر ناتئ، وهو يفرش صحيفته أمامه، وينادي على المارة أن يأتوا ويتأملوا. انتابني شعور غريب في تلك اللحظة، أن المشجع يراقبني، وربما تكون تلك الجلسة مخصصة لي شخصيًا، ولكنْ لماذا يراقبني؟. شعور سخيف بلا شك، نحَّيته جانبًا، وبسرعة شديدة.

- ماذا تريد؟

قلت مخاطبًا المدلِّك، وأعرف من خبرتي في التقصّي التي اكتسبتها طوال سنوات خدمتي، أنه جاء ليذكِّرني بموعد افتتاح مسرحية مسك الختام التي حصل فيها على دور العجوز المغمى عليه عند لقاء الحبيبة الغائبة، بعد طول انتظار لأي دور في مسرحية. في الماضي وحين كنت ما أزال أعمل، كان المدلِّك يقصدني في أمور أعظم، كأن أحرِّر لاعبًا من فريقه ضُبط يتعاطى البانجو في بيت مشبوه، أو أحد معارفه حرَّر شيكًا بلا رصيد لتاجر دراجات. كأن أتوسط له لدى تاجر الحي الذي يتعامل معه، كي يؤجل ديونه المستحقة. وطلب مني مرّة أن أسافر معه نوعًا من الدعم، إلى إحدى المدن الإقليمية في شرق البلاد، وكان ينحدر منها، وسمع بأن فرقتها المسرحية تبحث عن موهوبين تشارك بهم في عرض سيقدم ضمن مسابقات مسرح الهواة.

- لا تنس يا عبدالله.. افتتاح المسرحية بعد ساعتين فقط. لقد تحجّجت عمتك بآلام ظهرها حتى لا تحضره، وأعتمد عليك لتشجيع فرد من العائلة. اليوم سيولد في عائلتكم نجم.

كان رأسه مرفوعًا إلى أعلى في غطرسة، وعيناه واثقتين، وشفتاه مضمومتين بنهج مستفز، وتتأرجح ميدالية من القصدير على صدره العريض يحثها على التأرجح، حين يلمسها بين لحظة وأخرى.

لم أكن بالتأكيد مقتنعًا بالنجم الذي سيولد في عائلتنا، وقد تجاوز السن التي تولد فيها النجوم منذ زمن طويل، ولا دورُ الإغماء عدّة دقائق يغلق بعدها ستار المسرح سيصيِّره نجمًا، لكنْ لن أخذله، سأؤجل قراءة القصة إلى وقت آخر وأذهب لمشاهدة المسرحية. لم تكن

المجاملات الإنسانية من طبعي. في الواقع كان إلغاء تلك المجاملات جزءًا من تدريبي المكثّف في بداية عملي لكنَّ الطباع يمكن أن تتغير، والخروج من الخدمة قد يلغي الكثير من أساسياتها.

- وهل ستمثل بملابسك الرياضية هذه؟
- طبعًا.

ضحك في نشوة:

- ملابسي هي بيت القصيد يا فرفار، فالعجوز المغمى عليه كان رياضيًا مخضرمًا، بالرغم من أن ذلك لا يذكر في المسرحية، سيستنتجه المشاهدون حين يرون الملابس.. هذا ما يسمونه الإيحاء.. هل فهمت؟. تعال من الباب الجانبي للمسرح وسأجلسك في مقاعد الصفوة.. لا تتأخّر.

كان يخبط على كتفي خبطات متتالية، ويده كأنها عود حطب جاف. ولا أدري لماذا أحسست بالرعشة من خبطاته ولم أحس بالوجع. حلوة جدًّا كلمة الإيحاء تلك، كلمة جديدة على قاموسي أيضًا شبيهة بكلمة الطقوس، وسأستخدمها في قصر الجميز، أبهر بها اللامع (أ. ت) والفتاة صاحبة سروال الجينز باهت اللون وكلَّ الذين يجلسون على تلك الطاولة المثقفة وحين أُصبح كاتبًا كبيرًا سأتحدث كثيرًا عن الإيحاء ودوره في فن الكتابة.

كانت ساعتي الوست اند القديمة تشير إلى الخامسة عصرًا، والمدلِّك يرفع يده، يستوقف واحدة من عربات الركشة الخفيفة التي تستخدم بشدّة مواصلات في البلاد، وكانت بلون أخضر وسقفها من القماش البنّي. سمعت سائقها يصيح: "مرحبًا يا كابتن.. تفضل يا كابتن"، والمدلِّك ينحشر فيها ويده مرفوعة باتجاهي، ترسم موعد افتتاح المسرحية على الهواء.

تركت باب بيتي مواربًا واتّجهت إلى المشجّع حفار القبور، وهو يجلس على الحجر الناتئ وصحيفته أمامه. جلست بجانبه وأنا أشاهد الذهول حقيقة على عينيه وأنه بلا وعي. كنت أود أن أطيِّب خاطره قليلاً. تأملت صورًا عدة تمثله بملابس الصوفيين الخضراء ومسبحة اللالوب حول رقبته يحفر قبرًا، أو بملابس بيضاء برّاقة يصافح رئيس البلاد حين قلّده وسامًا، ثم وسط أفراد أسرته وأصدقائه ولاعبي فريق اللبلاب والوسام يتدلّى على صدره. قلت: "صورك جميلة، جميلة جدًّا"، لكنَّه لم ينتعش.. قال "ليست كلّها"، ونهض تاركًا صحيفته مفروشة في مكانها على الأرض، ومبتعدًا عن المكان حتى اختفى في أحد الأزقة. كان صوته واهنًا لا يشبه صوت مشجعي الكرة الكبار ومشيته كأنها مشية ضائع في الصحراء، يتلفت يمنة ويسرة. لممت صحيفته من الأرض، أخذتها معي وفكّرت أنه قد يعود باحثًا عنها، ودخلت إلى البيت.

كان المسرح القومي حيث تعرض المسرحية، بعيدًا من بيتي نسبيًا ولا تستطيع ساق الخشب اللعينة أن تقطع الطريق إليه من دون أن تتخلخل أو تسقط. حاولت أن أوقف عددًا من العربات كانت تمرق بقربي، لكنَّ سائقيها لا يلتفتون أو يلتفتون ويرتدّون بلا رغبة في التوقف، وحين عثرت أخيرًا على عربة ركشة شبيهة بالتي ركبها المدلِّك، ووصلت إلى المسرح، كان العرض على وشْك أن يبدأ. عثرت عليه متجهّمًا ينتظرني عند باب الصفوة، وقادني صامتًا إلى كرسي من القطيفة الحمراء في الصف الأمامي. رفع من فوقه صحيفة مطويّة، وأجلسني ثم انسلَّ راكضًا إلى خلف الكواليس. كانت مفاجأة لي أن الروائي (أ. ت) كان من بين الصفوة، والفتاة صاحبة سروال الجينز باهت اللون، من بين مرافقي الصفوة، تجلس على مقعد

ملاصـــق لمقعـــد الروائي، وتميل إلى أذنه هامسة بين لحظة وأخرى، واستطعت أنْ أتعقب همسها. كانت في الواقع تسأله إن قرأ شيئًا من روايـــتها (قـــصة حب)، والروائي لا يجيب ولكنْ ألمح أنفه أكبر من المعـــتاد، وأتخـــيله يـــستمتع بالعطر الذي لا بدَّ تتعطر به تلك الفتاة المهووســـة، والتي حاولتُ أن أقارنها بإيفا ولا عثرت على رابط. لن أحيـــي الروائـــي في هـــذه المرحلة. سأهرب من نظراته إن صادف ووجهها إليّ. أمامي عمل كثير قبل أن أنضم إلى طاولته وساعتها لن يكون حول الطاولة نجم غيري.

بـــدأ العـــرض ساخنًا، مجموعة من الناس يحملون جثة رجل، يضعونها على الأرض. يتّضح من الحوار الذي يدور بينهم، أنه غريق انتشلوه من النهر ويبحثون عن هويته. وهمس رجل يجلس بقربـــي في أذني، بـــأن الغريق يرمز إلى الوطن، والذين انتشلوا الجثة يرمزون إلى الشعب حين يعثر على وطنه غريقًا. دقّقت في ملامح الرجل حتى أتذكّـــره وأتتبع أفكاره فيما بعد، وأخذت أنبش في جيوبـــي باحثًا عـــن ورقة، ثم تذكّرت أنني خارج الخدمة وليس في جيوبـــي ورق أصـــفر. إنّهـــا دودة خدمتـــنا التي لا تموت بسهولة. ما أتفه دودة خدمتـــنا. استمر العرض ساعة حتى حان موعد ظهور المدلِّك. إنه الفصل الثاني الذي ينتهي بالإغماء، ثم تواصل المسرحية ما تبقّى من فصول.

في البداية ظهرت امرأة عجوز تمشي على مهل، وتردد عبارة "لا يمكـــن.. لا يمكـــن"، ثم ظهـــر المدلِّك من الطرف الآخر، كان بنفس ملابسه الرياضية ويمشي في تثاقل متكئًا على عصا من خشب الأبنوس. رأيته يقترب من المرأة، يصيح: "حليمة.. حليمة الجميلة"، والمرأة تصرخ "نعمـــان.. نعماني الوسيم.. لا يمكن"، ويسقط المدلِّك على ظهره في

تلك اللحظة محدثًا صوتًا هائلاً على خشب المسرح القديم. يصفق الحاضرون كلُّهم، ويغلق الستار.

في البداية فكّرت أن مهمتي قد انتهت بمشاهدتي لزوج العمة في دوره الذي سيصيِّره نجمًا كما يعتقد، وفكّرت في المغادرة لأعاود قراءة إيفا ومعرفة تطور العلاقة بينها وبين بطل القصة، لكنْ قطعًا سيبحث المدلِّك عني بعد نهاية العرض، وربما يتهمني بأنني فررت قبل أن أشاهده، ومن ثم بقيت ساكنًا أنتظر حتى النهاية، وفي تلك اللحظة كان الروائي (أ. ت) وصاحبته يحتكّان بي متجهين إلى باب الخروج، لكنَّهما لم يلقيا إلي أي نظرة.

مضى زمن أطول من ذلك الذي يستغرق في العادة لبداية فصل جديد وأعرف ذلك من متابعتي مشبوهين كانوا يدخلون المسارح، وأدخل وراءهم. سمعت الجماهير تطنطن في سخط أو تصفر، وبدأ بعض الحاضرين ينسحبون واحدًا تلو الآخر، ثم فُتح الستار أخيرًا وظهر على المسرح رجل في أواسط العمر يرتدي الثوب والعمامة ويمسك بمايكروفون. كان يردّد:

- نأسف حضرات الحضور. لقد أصيب أحد ممثلينا بوعكة طارئة، وسيلغى باقي العرض اليوم. الرجاء الاحتفاظ بكعوب التذاكر وإبرازها غدًا لو سمحتم. شكرًا على حضوركم جميعًا.

ثم أغلق الستار من جديد.

في المستشفى الذي نقل إليه المدلِّك، ووصلت إليه منهكًا وخائفًا بعد أن علمت بأنه لم يصح من إغمائه، وبصحبتي العمة التي اقتلعتها من آلام ظهرها وأتيت بها باكية، أخبرنا الطبيب أنه عثر في دمه على نسبة ليست كبيرة من عقار (الأتيفان) المخدِّر، لكنَّها يمكن أن تميت رجلاً في مثل سنه مصابًا بارتفاع ضغط الدم، وتصلُّب العروق. كان

قـــد خطّط لكلِّ شيء كما يبدو: أن يسقط على المسرح بفعل إغماء حقيقـــي، ولـــيس إغماء ممثل حتى يظل اسمه محفورًا في أذهان كلِّ من شـــاهد العرض، لا بوصفه أدى دورًا مميزًا ولكنْ أدّى دورًا حقيقيًا. في حقيبـــته التي فتحوها لم يعثروا على رسالة انتحار كما كانوا يتوقّعون، وعثـــروا على آلاف الأوراق الوردية المقصوصة بعناية في شكلِّ قلوب حية، مُوقّع عليها جملة واحدة وبخط غاية في الثبات:

أشكرك على إعجابك بـــي.. وأوقِّع لك مع حبـــي.

لم يمـــت المـــدلِّك في تلـــك المحنة، كما كان يتوقع الأطباء وأقرأ تـــشاؤمهم جليًا على وجوههم، وهم يحقنون ساعده اليابس كعود من الحطـــب، بسوائل عكرة وشفافة، ولا كان يودّ أن يموت حقيقة كما أخـــبرنا بعـــد أن اســـتيقظ وسأل عن سيجارة من ماركة دنهيل شبه المعدومة في البلاد. وقام بنفسه بتوزيع الأوراق الوردية مضيفًا إليها اسم الشخص الذي سيستلمها، على مئات من الناس توافدوا إلى المستشفى، أو البيت بعد أن غادر إليه. ونحرت العمة خروفين سمينين احتفاء بتلك العودة. كان المدلِّك مجنونًا بلا شك، شخصية روائية فذّة، كما قلت، وفي تلـــك الأيّـــام التي أصبح فيها شاغلي الوحيد، وسرقني من متعتي الجديـــدة وقـــراءة قصة إيفا، فكّرت عشرات المرّات أن أجعله محورًا لـــروايتي التي سأكتبها، وخفت أن يكتبه واحد غيري، خاصّة أن بعض الـــذين زاروه في المستـــشفى أثـــناء رقاده، لم يكونوا من معارفه أو أصدقائه، ولا حتى جمهورًا معجبًا برجل أغمي عليه في خشبة مسرح. هؤلاء تسكّعت في وجوههم كثيرًا مستخدمًا خبرتي في التقصي، وخيل لي مرارًا أنهم كتّابٌ هواة يبحثون عن نص ليكتبوه. أعتقد بما بذلته من جهـــد في تلك الأيام، ومواساتي للعمّة الباكية والوقوف معها ليل نهار يؤهلني لامتلاك شخصية المدلِّك، ولن أسمح لأي شخص آخر بسرقتها.

كـــنت مستلقيًا على بطني في سرير نومي. ساقي الخشبية هادئة بقربـــي، وإيفا بغلافها الجميل وتشويقها الغريب، بين يدي. كان الليل في بدايـــته. ثمة أصوات متقطّعة لعربات تمرق مسرعة، وتأتي من النافذة المفتوحة في ذلك الليل الربيعي، رائحة شواء محببة. أريد أن أبدأ القراءة الآن، ويبدو الفصل الثاني يناديني: اقرأني يا فرفار.. اقرأني..

- 7 -

هل يعقل ذلك يا أليكساندر يحيى؟.. هل يعقل؟

أن تتـــرك أذني تستعر هكذا، ولا تأتيني بعود ثقاب لأحكها؟ وما زلـــت تحـــوم حول الموائد بلا كلل حاملاً وجهك القوقازي الضخم، تتظاهـــر بالود حينًا وبأكثر من الود أحيانًا، ويستفزك ذلك المكسيكي الـــذي يجلـــس بلا لياقة، واضعًا ساقه اليمنى على أحد المقاعد، يدخّن سيجار هافانا أمام وجهك ناثرًا رماد اللّذة عليه ولا تبتعد؟

كان بهو الفندق قد امتلأ فجأة عن آخره، انحنت الحمامة الضخمة علـــى المدخل، لتحيي عشرات القادمين، وكانوا خليطًا غير متناغم من أوروبـــيين وآســـيويين وأمريكان وآخرين بملامح لم أعرف لها أوطانًا. وفـــيهم يابانـــيون بدوا لي أجهزة روبوت مشتعلة بالحماس صمِّمت خصّيـــصًا للـــسياحة في هذا البلد. كاميراهم غريبة، أجهزتهم المحمولة غـــريبة، وتقاطيع وجوههم في الواقع تقاطيع وجه واحد. راقبت انحناء الحمامـــة قليلاً، علها تحيي الموريتناني ولد البني، ورومانيته البدينة، لكنَّ ذلـــك لم يحدث، وعدت إلى ممر إيفا أتأمّل فراغه، ولم يأتني أليكساندر بعود من الخشب لأحكّ أذني. لماذا توقفت عن التدخين؟، كنت سأعثر على عود ثقاب لو كنت ما أزال أدخِّن.

الآن اقتربت منّي واحدة من اليابانيات، فتاة شابة ولكنْ بلا فتنة ولا إغراء. ملامح الروبوت مشتعلة على وجهها بجدارة، ولا بدا قميص الجينـــز الضيّق الذي ترتديه، بنهج أمريكي، وتجعله ضاغطًا بقوة على

صـــدرها المفتوح، دلوًا يمكنه أن ينتشلني من ممر إيفا الفارغ. في البداية خاطبـــتني بلغة التويوتا، والمازدا والنيسان، وهززت رأسي مرارًا بعدم الفهـــم. عادت واخترعت إنجليزية متعبة، فهمت منها أنها تريد سحب مقعـــد فـــارغ من طاولتي، تنضم به إلى طاولة رفاقها المزدحمة، لكنّها غـــيرت رأيهـــا كمـــا يبدو، ووجدت فجأة روبوت مشتعلاً يجلس بقربـــــي، علـــى المقعـــد الذي تركه الموريتاني، حين فرَّ برفقة وردة بنفـــسجية ورومانـــية أعادتـــه إلى ثقافة بلده. لم أكن راغبًا في رفقة ميكانيكية كهذه. استمعت إلى سؤال أو سؤالين عن هُويَّتي وبلدي وما أفعلـــه في بلاد خفَّ وزنها وضاعت هيبتها حين أنجبت غورباتشوف، وتـــركته يخترع البروسترويكا. أجبت بأنني سائح عادي يلتقط الصور للكرملين والميدان الأحمر، وقلاع الذئاب المنتشرة هنا وهناك، ولم أقل مخـــرجًا سينمائيًا. كانت أسئلتها ستتشعّب بلا شك، وستكتشف بأنّني لم أخرج سوى فضلات بطني منذ غادرت معهد السينما، وأنني لست مثقفًا كبيرًا، بدليل أنني لم أقرأ حتى الآن أدبًا يابانيًا، ولا سمعت بيوكو ميشيما كاتب اليابان الكبير صاحب رواية القناع، إلا عرضًا في إحدى الجلسات. ضحكت اليابانية بعمق، ولا أدري لماذا ضحكت. أخرجت من حقيبتها المصنوعة من جلد فرس البحر، منديلاً مطرَّزًا، مسحت به دمـــوع الضحك الكثيفة. كان وجهها الروبوتي أحمر في تلك اللحظة، ووجهي لا بدَّ أحمر أيضًا، وأتلفّت بعصبية باحثًا عن نكتة في المكان ربما أضحكت تلك المبرمجة ولم تكن إجاباتي تضحك بهذا الشكل. وأشاهد رجـــلاً كأنه فيدل كاسترو في شبابه، يجلس خلفي مباشرة في مواجهة اليابانية، وكان يفرد يده اليمنى أمام شفتيه، يحمِّلها قبلاً هوائية يرسلها في اتجـــاه رفيقتي. الآن فرغ مقعد الموريتاني مرّة أخرى، وامتلأ المقعد الفارغ بجوار كاسترو عاشق الروبوت والبرمجة.

أخــيرًا ظهرت إيفا الملوّنة. ارتبكت وأنا أشاهد الممر يمتلئ فجأة بالمشية الدلّوعة المكسّرة. نهضت واقفًا، تمامًا مثلما ينهض تلميذ جالس في إحدى ناصيات الشوارع، حين يمر أستاذه.. أنا تلميذ وأستاذي بلا شــاربين ولا عــصا أو صوت مجلجل، ولكنْ بكلِّ تلك النعومة التي أعتــرض طــريقها الآن بعد أن خطوت عدة خطوات، وتعمّدت أن أســقط حافظة نقودي أمامها، كأنها سقطت عرضًا من الجيب. كنت أعرف أنها حيلة قديمة طالما استخدمت لبدء حوار مع طرف يجهل كلّ شيء عن ذلك الحوار، وأتوقّع أن الملوّنة ستكتشف أنها حيلة وتواصل طــريقها. والفاتنات يعرفن ويتدربن على اكتشاف الحيل حتى لو كنَّ مــراهقات يافعــات. وأذكر تماضر، فتاة الجيران التي أسقطت أمامها عشرات الأشياء حين كانت تعبر بالطريق و لم تلتقط منها شيئًا واحدًا.

إيفــا فاجــأتني بلا شك، انحنت لنلتقط الحافظة معًا، وتتلامس أصــابعنا بــرهة. هــي التقطت الحافظة وسلمتها لي متبوعة بابتسامة واتجهــت إلى المــصعد، وأنا التقطت ذرَّة وهم حولتها إلى قنطار يقين مــشيت به إلى مقعدي أولاً، ثم إلى غرفتي حين صعدت إليها في أول المــساء لأســتحمّ وأستبدل ثيابــي، وإلى الحوار الذي دار بيني وبين الموريتاني ولد البي، حين عثرت عليه في ساعة العشاء متكئًا على مقعد مــريح من الجلد، بين يديه قائمة الطعام مفتوحة عند صفحة الأكلات الأوروبــية، ويفوح من جلده عطر لا يشبه عطور الصحراء. كان قد تحــول إلى سائح، ويستعد لجولة مسائية برفقة سائحته البدينة، و لم تعد همه شركات الإنتاج التي تأتي لتوثق الصحراء في تلك التوافه.

- هل الابتسامة تكفي في نظرك؟

كان يسألني.. وعيناه لا تستقرَّان على وجهي، ولكنْ تجولان في المطعم، عينا منتظر قلق، وليستا عيني رفيق يستمع إلى رفيق.

- في الوقت الحالي تكفي.. كان يمكنها أن تتجاهل الأمر وتمضي في طريقها، لو لم أرُقْها. سأنتزع منها ابتسامات أخرى، بل ضحكات.. سأتزوجها يا ولد البني.. وسترى.

كنت متحمّسًا وأحرق، وانتزعت قائمة الطعام من يده، فتحتها على الأصناف الروسية، ورأيت وجهه كلّه ابتسامة. سمعت صوته خافتًا، ويتحدث بالروسية:

- رحلة شهر العسل على حسابي. وفي أي مكان تختاره.

كان قد نهض لينضم إلى سائحته الرومانية التي ظهرت من بعيد، ترتدي سروالاً من القطيفة الخضراء، وقميصًا أصفر بلا كمين، بيَّنها أكثر بدانة مما كانت في الصباح، ولا بدَّ أن الموريتاني أطرى بدانتها بإسراف اثناء خروجه معها، وربما أطلعها على ثقافة بلده وأدخلها تلك الثقافة. سأتناول العشاء الروسي وحيدًا اليوم، لا بأس ولكنْ سأتناوله بعد ذلك برفقة ناعمة، أنا واثق من ذلك. سينتهي الملتقى بعد ثلاثة أيام من المفترض أن أرحل بعدها، أعود إلى أرض الظمأ والبطالة والحواري المثقلة بالبؤس انتظارًا لمعجزة ما، لكنَّني لن أرحل، سأجد طريقة للبقاء وأكمل ما بدأته. بالأمس فقط قدم لي أليكساندر يحيى عرضًا تافهًا، حين أخبرته عن فشلي في مجال السينما في بلادي، وعدم رغبة الروس في توظيفي لديهم بالرغم من أنني أحضر ملتقاهم منذ خمس سنوات وأعرف الكثيرين من ممثليهم ومخرجيهم، قال إنّه سيجد لي عملاً في أحد المكاتب التي تهتم بالترجمة إلى الروسية. هو مكتب تملكه قريبة له تدعى سانشيا، ولن تردَّ طلبه. يهتمّون بترجمة سير الزعماء، ووثائق الحروب التي تنشب في كلِّ مكان، والروايات التي أحدثت ضجيجًا في العالم الثالث، وسأنسجم معهم بلا شك.. سانشيا مثقفة كبيرة ومتعاطفة.. ستعجبك.

كان يقول وعيناه القوقازيتان، تتسعان وتضيقان، ويداه تتحركان بـــشكل مزعج، وأجد نفسي أرفض عرضه بلا تفكير. لن أترجم سيرة زعـــيم ممتلئة بالتبجيل، كتبها أو كتبت له بلا صدق، ولا مشاعر. لن أتـــرجم وثائق الضرر التي لا تهم أحدًا سوى من تضرر، ولا أتوقع أن أنجح في ترجمة رواية، لأنني أعتبر ترجمة الأدب خيانة لصدقه، ويجب أن تقـــرأ الآداب للـــذين كتبت لهم بلغتهم. لم يكترث أليكساندر كثيرًا لانفعالي، ولم يسحب عرضه بالرغم من قسوتي وجلافتي، تركه هكذا قائمًا، وانصرف إلى تحليقه الروتيني بين الموائد. الآن أجد نفسي أغازل ذلـــك العـــرض، أهديه وردة وقبلة، وأنهض من مقعدي قبل أن أكمل العشاء. أتوجه إلى بهو الفندق باحثًا عن النادل القوقازي، ولا أجده.. لقد انتهت نوبة خدمته وانصرف.

كـــان الليل بطيئًا، وقاحلاً وقد انفقت ثلثه في شارع بوشكين، أتأمل محلات الحلاقة المنتشرة هنا وهناك، ممتلئة بالشباب، وقد أدخلت قصّات المارينـــز الأمريكية إلى قوائمها. أتأمل الإعلانات الضخمة عن بالـــيه (عـــندما يكتمل البدر) ومسلسل (المعلم ومرغريتا) المأخوذ من روايـــة لبولغاكوف، أو أجلس على ناصية مقهى مزدحم، أفكر في مئة حـــيلة أدخل بها إيفا الساحرة إلى حياتي. يزداد تصميمي كلّما أوغلت في التفكير، وكانت آخر فكرة التقطتها، وأنا أغادر الشارع عائدًا إلى فندقي، وأشاهد الكوبـــي الذي كأنه كاسترو في شبابه، برفقة صديقته الروبوت اليابانية يترنّحان، هي أن أطرق قلب إيفا مباشرة، أعترضها في الصباح اعتراض مخبول عاشق وأطلب مساحة في ذلك القلب. ستصدُّني حـــتمًا، ولـــن أستـــسلم، والنجاحات الكبيرة كما أعرف، تأتي بعد عـــشرات المحاولات. كنت أعرف أنني لن أنام في تلك الليلة، وإن نمت فليس أكثر من نعاس مضطرب. ومن ثم عرّجت على إحدى المكتبات

الكـــبرى في تلك المدينة التي تشعُّ ثقافة. أريد رواية سلسة تلهبني أكثر وتقـــضي معـــي ما تبقّى من الليل قضاء معشوقة في أحضان عاشق، ورشَّـــح لي بائع الكتب الشاب رواية من تأليف مارك زاخاروف، قال لي: "لن تنام قبل أن تكملها"، وكنت بحاجة لتلك النصيحة.

حيّـــتني الحمامة بمنقارها الملون وأنا أدخل من الباب، كان البهو شـــبه خـــالٍ، وقد تبعثر السيَّاح غير المتناغمين في كلِّ شبر من أشبار المديـــنة كماً يبدو. عشرات المهرجانات تقام في كلِّ عام. يأتي عشاق الـــتاريخ، لـــيروا التاريخ حيًّا، عشاق فن الأوبرا، ليسهروا في مسرح موســـكو الفـــني، وحتى عشّاق الأكل ليتذوقوا أكلات غريبة لمختلف الـــشعوب، تقدّم في مهرجان الطعام السنوي. كان الموريتاني موجودًا وكئيـــبًا، ويجلس واجمًا بلا رفيقة.. وفهمت أن الرومانية هجرته فجأة وبـــنفس الـــسرعة التي صاحبته بها. "تصوّر أنها أتلفت عطرًا غاليًا من كوكـــو شانيل، اشتريته لها بمئتي روبل! وصفتني بعدم التحضّر، وكنت متحـــضرًا جـــدًّا برفقتها. لم أبصق على الأرض أبدًا! و لم أندهش في الـــشوارع المدهـــشة، ولا ردَّدت أغنية لبنت لقاي ربما تعتبرها أغنية مـــتخلّفة.. آخ.. حـــتى الفندق غيَّرته، أخذت حقائبها وانصرفت إلى فندق آخر".

كـــان يحكي بمغص وأكاد أضحك.. ويمنعني من الضحك توتّري الشخـــصي الـــذي أحملـــه منذ الصباح.. أواسيه ولا أدري إن كانت مواســـاتي ستخرجه من بؤسه.. "لا تبتئس يا صاحبـــي، ستعود إليك بأسرع مما تتصور، فلن يلتفت إليها غيرك في زمن أصبحت فيه البدانة لا تلفت النظر".

كـــنت أتمـــدّد علـــى سريري في غرفتي بالطابق الرابع، ورواية زاخـــاروف بين يدي، أقرأ فيها على ضوء خافت ينبعث من مصباح

القراءة الموضوع بجانب السرير، رواية مشوِّقة منذ بدايتها، تتحدث عن روسيا في القرن الثامن عشر وتحكي عن فتاة ريفية فقيرة، اسمها: زاريبا، بيعت إلى تاجر نحاس أعرج وبعين واحدة كان يطوف القرى عارضًا بضاعته، باعها عمُّها الذي عاشت في بيته بعد وفاة والدها وزواج أمِّها من رجل آخر. وفي الليلة الأولى لها في أحضان التاجر، تقاوم بشراسة، مستخدمة أظفارها وأسنانها، برغم إحساسها بالدوار، لكنَّها لا تنجو من مخالب التاجر، وتصبح الفريسة المئة لرجل كان يشتري الفقيرات، يستمتع بهن بوحشية عدَّة ليال يتحولن بعدها إلى خادمات، يلمِّعن النحاس.. ويطفن به برفقته لبيعه للنساء القرويات.

مضيت في رحلة زاريبا مؤرَّقًا، يحزنني مصيرها وسط آخريات يملكن المصير نفسه، ولا أدري متى غفوت، لكنَّني استيقظت فجأة لأجد الكتاب مفتوحًا على صدري. ضوء القراءة ما يزال يعمل، وضوء الصباح كثيفٌ من خلف ستار النافذة. كانت الساعة المعلّقة على الحائط أمامي تشير إلى التاسعة صباحًا وكان وقتًا متأخرًا، ولا بدَّ أن إيفا الملونة عبرت ممرها منذ الصباح المبكر.. لا يهم سأتأنَّق حالاً وأفاجئها في واحدة من تلك الغرف، لا بدَّ أن مكتبها هناك.. ولا بدَّ أن أليكساندر يجي هناك أيضًا لأنني قبلت عرضه وسأعمل مترجمًا لسير الكذب ووثائق الضرر، وأترجم رواية رديئة أحدثت ضجَّة في العالم الثالث.

- 8 -

إنها الثانية عشرة ظهرًا كما تشير ساعتي الوست اند ذات المينا الخضراء المشوهة بفعل الزمن، الوقت الذي غالبًا ما يوجد فيه الروائي (أ. ت) جالسًا وسط معجبيه ومضايقيه معًا، على تلك الطاولة الأثيرة في مقهى قصر الجميز، وكنت هناك لا أدري لأبدي إعجابي بما قرأته أم لأضايق الروائي؟

اليوم وعند الفجر تحديدًا، في تلك الساعة التي يبدأ فيها طوفان الشوارع، وتختلط أصواتها، انتهيت من رواية إيفا. قرأت فصولها المتبقية في نفس واحد وانتشيت.. نعم انتشيت برغم كلِّ الصعوبات التي واجهتني أثناء القراءة. كنت كأني أصعد جبلاً رهيبًا، ولا أستطيع التقهقر إلى الوراء أو التوقف لالتقاط أنفاسي، وقد صعد ذهني ذلك الجبل بالفعل، عرفت أن ثمة أشياءَ أخرى في الحياة يمكن أن تمتع أيضًا، ليست مراقبة الطرق والوجوه وحدها، ليست كتابة التقارير على الورق الأصفر وحدها، ولا الوقوف منتفشًا في حفل تكريم يقيمونه من أجلك لأنّك كشفت عن سر. وكان لدهشتي أن فكرة كتابة الرواية التي قادتني إلى ذلك الطريق، لم تهرب مني بعد أن قرأت رواية حقيقية، بل ترسَّخت أكثر. سأبدأ الكتابة فورًا وسأعرض ما كتبت على الروائي في جلسته وعلى روائيين آخرين، وقرَّاء والدنيا كلِّها بعد أن ينشر كتابي. أيضًا سأقرأ كتبًا أخرى أحضرها من عند المسيحي (ر. م) وكلِّ المكتبات التي تبيع الكتب في العاصمة. سأقرأ.. سأقرأ.. أخذت

أرددهـــا وأنا أستعيد رواية إيفا بكلِّ أحداثها، كما أستعيد طعمًا حلوًا تذوّقه لساني ولا يودّ أن يضيع منه. لقد بدأ بطل الرواية الذي لم يذكر اسمـــه وأسميـــته (م. م) على اسم اليساري تاجر السيارات المستعملة، بالفعل في مطاردة الشقراء الملونة أو إيفا الملونة كما كان يسميها طَوال صـــفحات الرواية، لكنَّها كانت تصدُّه باستمرار. أدمن حبّها القاسي كمـــا يقول، وأدمنت تعذيبه، وفي فندق (إيروستار) الذي شهد كثيرًا مـــن الأحداث، جرحت وجهه مرَّات بأظفارها التي أطالتها خصيصًا لجرحه. أهدت إليه أسطوانة غنائية لفريق روسي اسمها (ابتعد أرجوك)، وحرضت عددًا من معارفها اصطادوه في ليل موحش وخنقوه، لكنَّه لم يتـــركها. وبواســـطة أليكساندر يحيى، الذي يسميه القوقازي صاحب الاسم الغريب، حصل على تلك الوظيفة في مكتب الترجمة عند سانشيا ماروف، وكانت سانشيا على العكس من إيفا، رقيقة وسهلة وسوداء الـــشعر، دفعـــت له مرتّب عدة شهور مقدمًا، وكلّفته مباشرة ترجمة كتاب عربـــي يشبه كتب التراث اسمه (ملمس الحرير في لغة القوارير) لمؤلف لم يسمع به من قبل، وشكَّ بأنه مدسوس على التراث العربـــي، لكـــنَّه شرع في الترجمة برغم انغماسه في حب إيفا ومطاردها في كلِّ فرصة تسنح له. هنا تأتي الأحداث التي أربكتني، وجعلت ذهني الجديد علـــى القـــراءة يتوقف مرارًا، ليلتقط أو يستعيد جملة ربّما ضاعت أو استعصت على الفهم. كانت سانشيا أرملة في الحادية والثلاثين، وتقيم في بيت مريح كما يسميه الراوي، حيث يقول:

"كـــان بيـــتها مأوى لأزهار البنفسج وشجر الغاردينيا. لأشعة الـــصبح القادمـــة من خلف ليل حالك السواد، وأيضًا للنشوة التي لا أدري كـــيف كانت تجيد صناعتها، وتحت قميصها الوردي في منطقة الصدر، يرقد جرح قديم.. إنه جرح حبها وفقدها".

في غــرفة صــغيرة بفناء بيت سانشيا يقيم الراوي أولاً، محاولاً استــعادة موســكو التي عاش فيها زمنًا. أتقن لغتها وغوايتها، وتركها راكــضًا خلــف سراب الأحلام، أن يصبح سينمائيًا مبجّلاً في بلاده، يعــود زائرًا سنويًا في ملتقى للسينمائيين ولا يشارك بشيء، لكنَّ زيارة هذه السنة تبدو مختلفة:

"ظهــرت إيفـــا في البداية كزهرة ريحان أجبرتني على استنشاق عطـــرها، والآن تبدو حنظلاً مطهوًّا بإتقان، يقدم لي على مائدة مطعم من فئة الخمس نجوم. لم أكن أملك عصا موسى، أهش بها أغنام العشق كـــي تـــرحل بعيدًا، ولا كانت عصا ضعفي حية تتلوى أمام السحر تبتلعه.. شهرزاد المزركشة بمئة ثوب أخّاذ.. أستلهم من وجهها الجنون، وتستلهم من وجهي المشوّه، قدرة أن تجعلني أجن".

إلى غرفته تلك تتسلل سانشيا ذات ليل: "مدهونة بشيطان أخرس كـــان يـــنازلني في صمت ويعرف أنني بلا عتاد. كانت ترتدي قميصًا أخـــضر شـــفافًا، لا يرشد العينين إلى الجسد الممتلئ بخواء أرملة، لكنَّه يفـــضحه أمام تلك العينين. قرأت فتنتها تلك وارتعدت، ولا أدري ما الـــذي شدّها إلى يأسي، وسجائري التي عُدت أدخّنها بلا توقف، ولا كانـــت في نظـــري ســـوى خيط إقامة تعلّقت به حتى أقيم قريبًا من الجارحة الملوّنة".

يقـــاوم الراوي فتنة سانشيا في تلك الليلة، وليال أخرى عديدة، من دون أن يشعرها بنفوره منها، حتّى لا يفقد وظيفته الواهية. يتعلل بانشغاله في تـــرجمة الكـــتاب التراثي، وينتقل إلى غرفة صغيرة على سطح إحدى البنايات، لكنَّ سانشيا ما تزال تتسلّل في ليال عديدة لتزوره بحجة السؤال عـــن التـــرجمة. وفي الليلة التي تتوقّف فيها إيفا عن صدّه، وتذعن لعشقه المجنون، يكون قد توقّف عن صدّ سانشيا، وسقط في أحضانها:

"تلــك اللــيلة، ابتسمت الملوّنة في وجهي، بل ضحكت بعمق، وشــاهدتُ جسدها كلّه ضحكة، لم تقل مجنونًا ولا تافهًا، ولا إفريقيًا مــشوه الجينات كما كانت تقول في الماضي. كانت أظفارها مصقولة وملونة بالبنفسجي، ولم تكن أظفار خدش ولكنْ أظفار مودة. اقتادتني إلى بيتها الذي كان فقيرًا جدًّا، وفي حي فقير ممتلئ بباعة التبغ والزجاج وأصوات النساء المسنّات والصبية، وكانت تمسك بيدي ولا أحس بأنني جائــع أو عطشان. وقفت أمام بيتها لحظات أتأمّل الصدأ على مفاصل الــباب، والخشب المأكول بالأرضة وقطّة بنيّة هزيلة تتلوى، ولم أدخل حــتى بعد أن صرّ الباب وهو ينفتح وانكشفت صالة صغيرة معلّقة في واجهتها لوحة. تركت إيفا التي طاردتها لأكثر من ثلاثة أشهر، مفتوحة العيــنين تنظــر إليّ في جزع وأسرعت إلى سانشيا التي لا أدري كيف ســكنتني فجأة كممحاة، محت آثار عشقي وتفاهتي. كانت معي الآن في غــرفة رحــبة مزدانة بالأساطير، داخل بيت كلّه بنفسج ونشوى، وعلــى سرير وردي من ملاءاته حتى أغطية وسائده. قميصها أخضر شفاف، وجسدها كلّه حياة.. لقد ماتت إيفا في ذلك اليوم، وعاشت سانشيا".

نهاية لم أفهم مغزاها تمامًا، وعزوتها إلى عدم معرفتي بالقراءة. لا بدَّ أنها نهاية كبيرة في نظر الذين تدربوا على القراءة، كتابة جن كما قالــت صاحبة سروال الجينــز باهت اللون. لقد كنت متعاطفًا مع الــراوي مــنذ البداية، أركض معه في مطارداته لإيفا، أنجرح معه بالأظفــار الخشنة، أختنق عندما يختنق، وبالمقابل أغتاظ من سانشيا الــتي تحــاول استمالته مستغلة الوظيفة التي منحتها له. لكنّني الآن مشتّت بفعل النهاية، مشتّت جدًّا ومنتش في نفس الوقت. لقد قرأت رواية أخيرًا، وغدًا سأكتب واحدة.

بالنسبة للموريتاني ولد البني فقد عادت سائحته الرومانية إلى الفندق مرّة أخرى وبحثت عنه، كما توقع الراوي، وسافر معها إلى أوروبا، وهكذا انتهى ذكره في الرواية مبكّرًا، بينما بقي النادل أليكساندر يحيى حتى الفصل الأخير، كان يرد ذكره بين حين وآخر.

كان قصر الجمّيز غارقًا في فوضاه المرتّبة، نادلاته الإثيوبيات يرحن ويجئن في تناغم. عدد من الأشخاص يحملون سمات قبائل الشرق المهمشة، يتهامسون في ركن، وحزبي عجوز من الذين لم يعد لهم وقع عند أجهزتنا الأمنية، مستغرق في صحيفة كتب على صفحتها الأولى بأحمر عريض:

البلاد في خطر.

من قال إن البلاد في خطر؟ ومن سمح لتلك الصحيفة أن تكتب عنوانًا عريضًا كهذا؟ أنا واثق برغم تقاعدي أن زملائي الذين ما زالوا في الخدمة قادرين على إبعاد أي خطر قبل أن يحدث. كنت أفكّر ولا أدري أي خطر بالضبط يتحدث عنه العنوان العريض. أفكر أكثر.. لعله خطر الفيضان أو المجاعة، أو انفلونزا نبات القصب التي سمعت بأنها تحدث عند مضغ قصب السكّر.

لم يكن (أ. ت) موجودًا على طاولته المعتادة، وشاهدت الفتاة صاحبة سروال الجينز، تجلس منفردة على ذات الطاولة، وقد سقط الغطاء الوردي عن رأسها الصغير، كاشفًا شعرًا مصبوغًا ببني لا يناسب شعور بنات الوطن. اقتربت في محاولة ألا تحدث ساقي البذيئة صوتًا على البلاط المقشر، لكنَّ الفتاة انتبهت كما يبدو، رفعت رأسها وأنا أهم بالجلوس على مقعد لم يكن قريبًا منها، وليس ببعيد أيضًا.

- شكرالله.. أليس كذلك؟

كانــت تــسأل وعيــناها على ساقي اللعينة، وأحس بالخشب يــتململ، وأنني خطأ كبير في ذلك المكان، وأتساءل في سري.. لماذا اسم شكرالله بالتحديد ما خطر على بالها في تلك اللحظة؟

- عبدالله حرفش.. عبدالله فرفار.
- صحيح.. آسفة.. أتيت مرّة واختفيت..

كانــت قد أبعدت نظراها عنّي، فتحت حقيبتها الجلدية المقشرة عند الأطراف. أخرجت مرآة صغيرة وضعتها أمام وجهها المبقّع بآثار من حبّ الشباب، تتأمله في شرود، واستطعت أن ألحظ داخل الحقيبة إصــبعًا ورديًا لطلاء الشفاه وآخر بنفسجيًا للأظفار، وصندوق علكة صغير من ماركة تشيكلت، مفتوح عند حافّته وقد أخذت منه حبّتين. لم تبد لي راغبة في حوار من أي نوع، وأحسُّها ما تزال متوجّسة وكان لا بدَّ أن أعرف أين الروائي.

- أين الأستاذ اليوم؟
- أخذوه.

ردَّت في نفــور وقــد أعادت المرآة إلى حقيبتها. أغلقت الحقيبة ونهضت واقفة و لم تنس أن تعود ببصرها برهة إلى ساقي البذيئة قبل أن تسحبه.

- من أخذه؟
- من يكون في رأيك؟ اثنان تافهان.. من تلك الأجهزة السخيفة.

طعنــتني بلا شك، حين وصفت زميلين محترمين يؤديان واجبهما بالــتفاهة. وصفت أعين الوطن الساهرة للحفاظ على أمنه بالسخف. فــتاة مندفعة يمكن أن تطأ خلية للنحل وهي تدري أنها خلية للنحل.. الآن وطــأت خليتي ولا تعلم، وحتى لو كانت تعلم فما عدت الخليّة القديمة. أخفيت اهتزازي بسرعة ولحقتها قبل أن تتحرك واضعة حقيبتها

على كتفها، وحب الشباب المتبقّي في وجهها يبدو أسود داكنًا وأشعة الشمس تسقط عليه من زجاج المقهى..

- إلى أين أخذوه؟
- لا أدري.. من يعرف إلى أين يؤخذ الناس؟
- ماذا فعل؟

ولم تجب عن سؤالي الأخير لأنها كانت قد ذهبت، وأتلفّت في قلق باحثًا عن أحد الذين كانوا يشغلون مائدة الروائي حين جلست إليها تلك المرّة، الشاب النحيل حامل الكتابين الذي سأل عن فكرة رواية إيفا، الفتاة ذات الثوب البنفسجي التي انفتحت ركبتاها ولم تغلقهما، العجوز الذي كان يدخّن بصمت ويده تهتز، وذلك الصحفي المعروف بحواراته المفبركة. لم يكن هناك أحد أسأله، وأقوم من مقعدي محبطًا. كنت أحمل طعم إيفا في حلقي وأردت أن أبهر به الروائي، حين يعرف أنني قرأته حتى لو كانت قراءة غير واضحة لدى ذهني تمامًا.. أردته أن يحترمني وأن يساعدني لأبدأ مشروعي الملحّ..

كانت إدارة الأمن الوطني، حيث كنت أعمل سابقًا، مبنى كبيرًا من عدة طوابق عليا وطابق تحت الأرض مخصص لاحتجاز الخونة. كان بلا لافتة ولا إيحاء أنه مبنى أمني، ويعرف الناس كلّهم أنه كذلك. كان يقع في وسط شارع ترابي، وفي واحد من أحياء العاصمة الراقية. اضطررت أن أركب عربة للأجرة عثرت عليها بصعوبة، حتى أصل. دفعت لسائقها العجوز ما طلبه من دون مساومة وقد تصدّع رأسي من ثرثرته التي كانت تقارن الزمن التافه الذي نعيشه، بالزمن الماضي العظيم. ودخلت باحثًا عن (ر. ج)، كنت واثقًا أنه أحد الرجلين اللذين اصطحبا الروائي من مقهى الجميز ووُصفا بالتفاهة، فقد لمحته في مرتي الأولى، يحوم هناك، وتصنّعت عدم رؤيته. لم أكن أريد مصافحة

شخص ربما يعرفه الذين أردت رؤيتهم، ويعرفون وظيفته ومن ثم أطرد قبل أن أتعلم حيل الكتابة.. ليس بسبب وظيفته المحترمة بلا شك، ولكنْ بسبب النظرة العامة إليها.

كان (ر. ج) موجودًا، وصافحني في حرارة، وكان مستغربًا أنني عدت.. ولا بدَّ ظن أنني أعدت إلى الخدمة مرّة أخرى.

- لا.. ليس كما تظن.. ولكنْ أسأل عن الروائي (أ. ت).

رفع حاجبيه في دهشة..

- هل هو قريبك؟
- أبدًا.. لكنْ يهمني أمره.

لم أقل فيم يهمني أمره، وهؤلاء المجندون كما أعرفهم وكنت واحدًا منهم حتى عهد قريب، لا يعرفون عن الرواية سوى أنّها بذاءة تدخل في أحيان كثيرة ضمن خيانة الوطن، و لم أكن خائنًا للوطن، ولكنْ كاتبًا في بداية طريقه.

أخبرني الزميل بأن ملف الروائي قد خرج من يده، سمِّي ملف (الطائر الذبيح)، وحوِّل إلى المسؤول للبت في أمره. لم تكن هناك أي تهمة ولا حتى اشتباه، وكان ذلك إجراءً عاديًا نتخذه من حين لآخر لإثبات وجودنا، وأننا حريصون على أمن الوطن وسلامته. كان المسؤول يعرفني جيدًا بحكم عملي واحدًا من أفراد فريقه عدة سنوات أدّيت فيها واجبي كاملاً. في الواقع كان يخصّني بود ما، وعرفت أنه عارض تقاعدي القسري بقوّة وكان ينوي توظيفي في مكان لا تستخدم فيه السيقان للركض أو حتى للمشي لكنَّ معارضته لم تنجح. المسؤول كان مشغولاً جدًّا، وعدد كبير من الأفراد يدخلون ويخرجون، وأرى مشبوهين قدامى أعرفهم، وجددًا لم أرهم من قبل، يساقون إلى مكتبه وأجسادهم ترتعد.. وبالرغم من ذلك أوقف انشغاله لعدة دقائق

واســتمع إلي، طلــبت منه باختصار شديد أن يطلق الطائر الذبيح من قفــصه إكــرامًا لعبدالله فرفار وخدماته الجليلة التي طالما أدّاها. لم يقل لماذا.. نادى أحد الأفراد المرابطين أمام مكتبه، كلّفه بالمهمة وصافحني واقفًــا على قدميه. كنت أخرج من مبنى الإدارة مرفوع الرأس، وطعم إيفــا قــويًا في حلقي ونيتي في بدء الكتابة قوية أيضًا واضطررت لأن أخــرج منديلي القطني العريض من جيبــي، أغطي به نصف وجهي، وأنا بالباب.. كان الروائي (أ. ت) هناك، ينفض قميصه من تراب علق به، ويتجه إلى الخارج واحتك كتفه بكتفي في لحظة الخروج.

مــساء اليوم نفسه، كنا نتحلّق حول الروائي، على الطاولة التي ستشهد اليوم أول وجهة نظر أبديها في كتاب. أنا بالقرب من الكاتب. صاحبة سروال الجينــز باهت اللون أشرقت أكثر عما كانت عليه في الــصباح، قريبة أكثر مني وتكاد تدخل ضلوعه من شدة قربها. الشاب حامــل الكتابين، وآخرون أشاهدهم لأول مرّة، كانوا يهنئونه بالعودة بعــد غــياب دام عدة أيام، ولم يكن يرد على تلك الأسئلة عن مكان غيابه. كنت أبتسم خفية، وأعرف أن الذي نأخذه ونعيده، يظل أسيرًا لدينا حتى وهو في كامل الحرية. أعرف أن الروائي سيتجه بالحديث إلى مواضيع أخرى، وربما ينفي أنه كان في ورطة، ولولا أن شهودًا كانوا يعرفون أنه أخذ، لما عرف أحد ذلك. ابتسمت خفية وأحس بزهو كبير أنــي محرره وأمتلكه في هذه اللحظة، حتى لو كان امتلاكًا خاصًا، لن يعرفه غيري.. كان يقول:

- في ذهــني عمــل جديد يا أصدقاء بدأت تتحدد معالمه.. سأكتب روايــة بطلــها لاعب كرة قدم في حارة فقيرة، وجد نفسه فجأة وزيرًا.. ما رأيكم؟
- كلّ ما تكتبه يعدّ حدثًا أستاذي.

كانت صاحبة سروال الجينز باهت اللون هي التي تتكلّم، وما زالت قريبة من ضلوع الكاتب، وأقرأ على وجهها مؤشرات وشوقًا لسؤاله عن روايتها لحظة حب، وتعرف جيدًا أنه لم يكن في وضع يسمح له بالقراءة.

- قرأت (على سريري ماتت إيفا).. تجربة جديدة تمامًا ورائعة.. أودّ أن أهنئك عليها.

كنت أنا عبدالله فرفار من قال ذلك الكلام الكبير، وكأني أعرف التجارب الروائية كلّها لأحدِّد أن هذه قديمة وتلك جديدة، كما قلت إن إيفا كانت روايتي الأولى التي أقرأها، التي خرجت منها بأشياءَ وغابت عني أشياء أخرى، لكنْ لا بأس يمكنني أن أتحدّث. كان الكاتب يهمّ بالرد على إطرائي رافعًا رأسه الذي استعاد غطرسته، وأسرع بالسؤال الذي أختزنه من ساعة أن أكملت إيفا:

- لكنْ لماذا ترك الراوي إيفا، تلك الساحرة التي تعب في مطاردتها، فجأة، وذهب إلى سانشيا ماروف التي كانت تطارده ويهملها طَوال الوقت؟
- هذا متروك لتقدير القارئ أخي نور الدين.. هو من يحكم على سلوك البطل بعد قراءته للرواية، وليس أنا... أنا كتبت وانتهيت.
- اسمي عبدالله حرفش.. عبدالله فرفار

أسرعت بالرد وأحس بأنه يتعمد نسيان اسمي، ويخترع لي اسمًا آخر لا يشبه اسمي ولا يقترب منه، كما فعلت صاحبة سروال الجينز حين التقيتها في الصباح. كان يمكن أن يقول أخي من دون نور الدين، ليتني أستطيع إخباره بأنني أمتلك حريته، أمتلك جلسته المتغطرسة هذه، وشاهدت قميصه ممتلئًا بالتراب، وأنفه باتجاه الأرض وأخبرني أحد

المجنّدين بأنه برك على ركبتيه، يستجدي سيجارة. لا أستطيع، سأفسد الأمر، وروايتي على وشك أن تكتب.

- سؤال آخر أستاذي.. هل كلّ تلك الأحداث حقيقية؟، أعني هل وقعت بالفعل؟.. وهؤلاء الأبطال هل هم موجودون في الواقع؟
- ليس كلّ ما يكتب حقيقة بالطبع أخي فرفار.. توجد حقيقة ويوجد خيال، والعمل الناجح هو الذي يوهم القارئ بأن الخيال حقيقة.. أنت تملك محاولات في الكتابة.. أعتقد أنك أخبرتنا بذلك.
- نعم.. لدي محاولات.. سأطلعكم عليها قريبًا.

كنت أتحدث في ثقة، وقد بدأت أفكار غير واضحة تتقافز في ذهني، ما علي سوى توسعة الخيال، والصبر، سأقلّد طقوس الروائي (أ. ت) التي ذكرها من قبل، أقلدها كلّها، وأرى أي طقس منها سيمنحني شيئًا، وربما تصبح لي طقوسي الخاصة في المستقبل. كانت الجلسة تنفض، وأجرّ ساقي مبتعدًا ولا أحد ينظر إليها.. لقد اعتادوا على شكلها وانجرارها في الأرض بلا شك. وغدًا يعتادون على صوتي الذي يجاورهم أكثر.

- 9 -

مـــساء غـــير عادي في بيتي، وأبدأ الآن خطوتي الأولى في سكّة الكتابة، متبعًا طقس الأناقة أولاً، بعد أن أحضرت بذلتي الرمادية المعدلة مـــن عند الخياط (خ. ر)، سلّمني إياها بعد خمسة عشر يومًا مغسولة بالـــبخار ومكوية جيدًا، وفردها أمامه أتفحصها في تأنٍّ، خوفًا من أن تكـــون ملوثة بدهن ربما نـــزّ من شطائره التي يأكلها أثناء الخياطة. لم يكن في ذهني أي فندق راق لأجلس في بهوه أكتب، ولا كنت مسافرًا لأكـــتب في صالة مطار ممتلئ بالإيحاء كما يقول (أ. ت)، فقط زينت صالة بيتي بعدة مزهريات إضافية وقطعتين من الكريستال اشتريتهما من دكان (طوبيا) للنجف والكريستال. وكانت رائحة معطر الجو بالنعناع تفـــوح في المكان وتجعله موحيًا. على الجدار المقابل كانت صورتي وأنا في الخامسة عشرة أحمل قوسًا كنت أستخدمه في صيد العصافير، معلقة تطـــالعني. بجـــوارها صورة لأمي الراحلة، تجلس على سرير من الحبال وبين يديها مروحة من السعف.

كان يومي مشحونًا جدًّا، منذ الصباح المبكر خرجت أتخبط جارًّا ســـاقي البذيئة. تحريت عن اليساري (م. م) تاجر السيارات المستعملة بواســـطة خبرتي في التقصي، عرفت أنه درس فنون الطبخ في موسكو وتخصّص في طبخ شرائح اللحم المنقوعة في صوص الطماطم والبازيلا، لكـــنَّه لم يعمـــل في مجال تخصصه وكانت مجرد شهادة علقها في بيته. جـــرفته السياسة لفترة طويلة قبل أن يعتزل ويتجه لتجارة السيارات.

اكتشفت أنني أعرف كلّ تلك المعلومات من قبل وقد راقبته طويلاً، لكنّني نسيتها كما يبدو بفعل الزمن أو بفعل شغفي لدخول عالم الكتابة. لم يكن (م. م) بطل إيفا بالتأكيد، ولا تشبه قصته قصة البطل. كان متزوجًا إحدى قريباته، ويعيش في حي شعبي بعيدًا عن البنفسج والغردينيا والسرير المفروش بالأساطير. يوجد خيال ويوجد واقع.. هذا ما قاله (أ. ت).. وربّما يكون صادقًا في قوله.

عند الظهر زارني ضيوف مباغتون لم أكن أتوقعهم، واستغربت من زيارتهم، وأنا أفتح لهم الباب وأجلسهم على الصالة، أقدم لهم عصير التبلدي الذي أحتفظ به دائمًا مخلوطًا وجاهزًا.. كنت أحبّه كثيرًا. كانا العمة (ث)، وزوجها المدلِّك الرياضي بعد أن تعافى تمامًا من إغمائه بحبوب الأتيفان، وعاد إلى زيه القديم، وحذائه ذي الخيوط المنسّلة، وعلّق ميدالية القصدير على صدره وبجوارها ميدالية أخرى صنعها عند حدّاد متخصص في صنع التوافه، مكتوبًا عليها اسمه، وتحته مباشرة: بطل مسك الختام. كان ما أثار استغرابي أكثر، أن المشجّع حفّار القبور (ع. د)، كان برفقتهما، وعرفت أنه هو من أحضرهما إلى بيتي حين ذهب يشكوني.

بادرني المدلِّك بصوته الخشن. خبط على كتفي بيد كعود حطب جاف، وأحسُّ بالرعدة أكثر من إحساسي بالوجع.

- أعد إلى الرجل صحيفته يا فرفار.. لا يمكنك الاستيلاء على تذكارات رجل حي.. أعدها فورًا.
- أي صحيفة؟

رفعت حاجبي مستغربًا..

- تلك التي تحوي صور تكريمه، يتهمك بسرقتها، ومحاولة تزويرها لتضع صورك مكانها. أعد صور الرجل فورًا يا فرفار.

ردد المدلِّك وأخرج من جيبه في نفس اللحظة واحدة من أوراقه المقـــصوصة التي وزّعها على الذين جاءوا للاطمئنان على صحته أثناء تلك الوعكة. كانت حمراء هذه المرّة، عرضها أمام وجهي لحظة قبل أن يضعها في يدي واستطعت أن أقرأ ما كتب عليها: إلى عبدالله فرفار.. نسيبـــي الذي لم يخذلني أبدًا.. شكرًا لإعجابك.

- هذه مميزة أليس كذلك؟.. قصصتها خصيصًا لأجلك.

كان المشجع حفار القبور يجلس مهتزًا على طرف مقعده، ملابسه خـــضراء صوفية ومسبحة اللالوب ما تزال معلقة على الصدر، وحلقة الروماتيـــزم حول معصمه الأيمن. كانت عيناه ذاهلتين.. عينا مجنون أو محموم بالملاريا.. العمة (ث) أيضًا ساكنة على مقعدها، وكنت أصرخ انفعالاً:

- ما هذا الكلام الفارغ؟.. ما حاجتي لصور رجل مجنون لأسرقها؟.. هل نسيت من أنا؟

فجـــأة تذكـــرت أنني أخذت صحيفته بالفعل حين تركها على الأرض بجـــوار ذلك الحجر الناتئ الذي كان يجلس عليه وانصرف و لم يلحظ حتى أنني أخذتها. لم أسرقها حقيقة ولكنّني احتفظت بها من أجله وأنا متأكد بأنه سيعود لطلبها يومًا، و لم يخطر ببالي قط أن يطلبها بهذه الطـــريقة الغريبة. المشجّع حفّار القبور جنّ بالتأكيد.. ليتهم تركوه بلا تكـــريم.. ليتهم. كان سيستمر مشجعًا كبيرًا، وحفّارًا للقبور في مقبرة عمـــران حتى النهاية. نهضت من جلستي وتوجهت إلى غرفتي الداخلية حيث احتفظت بالصحيفة، كانت ملوّثة بغبار كثيف ونفضتها، سلمتها للمـــشجع في صـــمت، أخذها، نهض واقفًا وانصرف. كانت مشيته، مشية ضائع في الصحراء، يتلفّت يمنة ويسرة. وفي صوت هادئ حاولت أن أبيّن للمدلك ما حدث، لكنّه أسكتني بصوته الخشن:

- حتى لو كان مجنونًا كما تقول.. فهو صاحب تذكارات ويعرف تذكاراته جيدًا.. هيا يا امرأة.. هيا.

أمسك بيد العمّة في خشونة، وهو ينهض واقفًا. وجهه لامع وحليق، وسيجارته من ماركة برنجي المحلية... وكانت العمّة على غير عادتها، منقادة في سلاسة ولم تقل شيئًا منذ جاءت وحتى انصرفت. لعلها انبهرت بإغمائه الهمجي على خشبة المسرح بالرغم من أنها لم تشاهده، أو لعلها تخشى فقده وقد غدا ملفتًا للنساء. وكنت قد شاهدت رفيقته التي أدت دور الحبيبة المفقودة، قريبة جدًّا من سريره أثناء رقاده في المستشفى، وكانت شابّة تم تعديلها لتصبح عجوزًا تلتقي بحبيب عجوز، لا أدري.. لا أدري بالتحديد.

كان يقيني قد ازداد بأنني سأكتب المدلّك، إذا لم أكتبه في روايتي الملحّة هذه، قطعًا سأكتبه في رواية أخرى أنجزها فيما بعد. شخصية غنية بشكل لا يصدق كما سمعتهم يطلقون على مثل هذه الشخصيات في قصر الجميز.. حفار القبور أيضًا يمكن أن يكتب.. الرجل المتزن الشهير حين يفقد عقله من جراء تكريمه بواسطة رئيس البلاد.. يا الله. وحده الخيال الواسع يستطيع أن يحوله إلى تحفة..

كنت قد مررت بتجارب كثيرة أثناء خدمتي كما ذكرت، بعضها أسعدني بوصفي أديت واجبًا من أجل البلاد، وبعضها كان يمكن أن يحزنني لأنني ظلمت أحدًا، أو سرقت مستقبلاً من أحد، لكنْ لم يكن ثمة مجال للحزن في عملنا وقد تدرّبنا على إلغاء الحزن. وأعرف زميلاً قاد عمه إلى ساحة رمي الرصاص وهو يعرف تمامًا أنه ليس رصاصًا من ورق. بائعة الهوى التائبة في سايغون كانت خاطئة بلا شك، وأنا خضت تجاربَ لا أخطاء.. وقد بدأت أبحث في ذهني عن بعض تلك التجارب يمكن أن يصلح للطقس الأنيق، طقس ارتداء البذلة الرمادية

المعدّلة، والإمساك بقلم الباركر الأسود المعبأ حبرًا، ودفتر الأوراق الصفراء أمامي ينتظر أن أخطّ عليه شيئًا.. المدلّك وحفار القبور، سأحاول كتابتهما في طقس العري أو طقس التشرد في الشوارع، إذا ما أخفق الطقس الأنيق، ولن أخوض في وحل مغنية الزار أمّونة البيضاء لأنني لا أملك إمكانيات استئجار بيتها ونزواتها في الوقت الحاضر. أما سرقة محفظة من تاجر مواشٍ أو حقيبة يد من امرأة تسير في الطريق، والكتابة داخل السجن، هذا ما أبعدته عن ذهني تمامًا. لم يكن ماضيّ يسمح لي بخوض تجربة كهذه، وحتى لو خضتها بلا سرقة بواسطة معارفي من السجّانين.

الفكرة جاءت -يا الله- جاءت فجأة، وقفت لأرقص منتشيًا، ناسيًا أن الساق الخشبية كانت خارج الخدمة، وموضوعة أمامي على المقعد المقابل، وكنت قد نزعتها خصيصًا حتى أندمج ولا أتحرك أثناء الكتابة، كدت أسقط ولم أبتئس، سأكتب عن قضية السكرتيرة (ش. ن) التي عرفت في دوائرنا بقضية (التفاحة) لأن بطلتها لم تتوقف عن قضم التفاح حتى وهي تخضع لاستجواب مرير، قضية شهدت وقائعها منذ أكثر من عشر سنوات. سأغيّر الأسماء كما يفعل الروائيون، وأحاول أن أكون خياليًا.. سأحاول. أمسكت بالقلم الباركر وانحنيت على أوراقي. كنت أكتب والليل يمضي، ومئات الشياطين تكتب معي..

- 10 -

(راقبتها في ذلك الصباح مراقبة دقيقة، كنت أقف على ناصية الطريق مواجهًا المبنى الذي تعمل به سكرتيرة في شركة (دلتا نون) لتصدير المواشي، أرتدي ثوبًا ممزّق الكمّين، مزقته بيدي، وأضع على عيني نظّارة سوداء من ماركة بيرسول، كسرت إحدى عدستيها عنوة حتى تبدو قديمة. مرّ بي شحاذ يحمل سلّة من سعف النخيل على ظهره وسأل عن صدقة، لم أعطه شيئًا، ودخل المبنى. مرّت امرأة ترتدي ذهبًا كثيرًا على عنقها وساعديها، قالت: السلام عليكم، ودخلت. وهبط رجل من سيارة أجرة قديمة، أحد أبوابها مكسور، ويقودها سائق لا يشبه سائقي عربات الأجرة إذ كان يرتدي سروالاً من القطيفة الخضراء، ويضع شريطًا غنائيًا لأحد المطربين الجدد، وأسمع أغنية (بهدلة.. بهدلة) التي انتشرت أخيرًا، تنبعث منه. دخل الرجل إلى المبنى، وتحرك السائق مبتعدًا. بعد ساعتين خرجت السكرتيرة (ش. ن) من المبنى، في يدها تفّاحة مقضومة حوالي ثلاث قضمات، وكان برفقتها الشحاذ والمرأة التي تلبس الذهب، والرجل الذي هبط من سيارة الأجرة. كانوا يضحكون، فجأة التفتت (ش. ن) ناحيتي وكان الشارع قد بدأ يزدحم، حيث توجد شركات كثيرة في ذلك المكان. توقّفت عن الضحك وسمعتها بوضوح تخبر رفاقها، بأنّ القهوة اليوم ستكون بلا سكّر. لم أفهم عبارتها، وأظنّ أنها شفرة معينة متفّق عليها بينهم. رأيت جمعهم يتفرق، كلّ يذهب في اتجاه، وعادت السكرتيرة للدخول إلى

المــبنى مــرّة أخرى، وظللت واقفًا أفكّر في عبارتها حتى الظهر وأنتظر خروجها، لكنَّها لم تخرج.. في الصباح التالي جئت مرّة أخرى، وكنت هذه المرّة أرتدي ملابس راقية: قميصًا أزرق وسروالاً أسود وربطة عنق حمــراء، وأحمــل عدد اليوم من صحيفة (الببغاء) المتخصصة في انتقاد الحكــومة، والتي كانت تطبع بطريقة سرية وتوزع بسرية أيضًا، لكنَّنا نعــرف كــيف يحدث ذلك. ظهر الشحاذ مرّة أخرى، طلب صدقة وأعطيــته هذه المرّة. جاءت المرأة صاحبة الذهب وكان ثوبها بنفسجيًا شفافًا وعلى حافته يوجد شريط أبيض يبين أنه من ماركة راتي الغالية. هبط الرجل من عربة الأجرة ذات الباب المكسور نفسها، والشريط ما زال يــبث أغنية (بهدلة.. بهدلة)، دخل الرجل وتحرّك السائق. ترددت كــثيرًا في تلــك اللحظة بين أن أدخل المبنى أو أستمرّ في المراقبة.. ولم أكن أستطيع أن أخرج جهازي اللاسلكي من تحت ملابسي لأستشير الإدارة.. خفت أن يلفت النظر.. و..).

- لحظة.. لحظة لو سمحت يا حرفش - فرفار.

كــان صــوت الروائي (أ. ت)، يخاطبني وقد غدا صوتًا مرتعشًا بــصورة واضــحة، وألمــح في تلك اللحظة عينيه مذعورتين، ركبتيه ترتعــشان أيــضًا، ونقاطًا من العرق تلمع في وجهه ويتلفّت في المكان كأنه يبحث عن شيء ضائع.

كــنت قد اصطدته بعناية في ذلك اليوم، انتظرته أمام باب قصر الجميز منذ الصباح الباكر، وقبل أن يأتي أحد من معجبيه، خاصّة تلك الفــتاة صــاحبة سروال الجينــز التي أحسست أنها لا تحبّ وجودي بيــنهم، وربما تفسد خطتي في تعلم الكتابة بجلستها القريبة من ضلوع الكاتب. كنت أريده أن يسمع بدايتي التي اجتهدت طَوال ليل أمس في كتابتها بخطّي الرديء على ورقي الأصفر الذي كان مخصصًا في السابق

للتقارير، مرتديًا بذلتي المعدّلة بمقص الخياط (خ. ر). الطقس الأنيق الذي سأكتب به رواية (التفاحة)، قصة السكرتيرة الحسناء التي كانت تعمل منسّقة لشبكة من الخونة مهمتها تقويض الأمن واستطعنا إحباط مخططها في الوقت المناسب. جاء الروائي متبخترًا وسيجارة في فمه، ووجدني أمامه. وأريده وحده، أن يكون الأمر بيني وبينه، وأن أحصد إعجابه أو نصائحه حتى أحصل على رواية جيّدة، أعود بعد ذلك لأسمعها للآخرين في قصر الجميز. رجوته أن يصحبني إلى مكان آخر لأريه البداية، ووافق بعد جهد كبير مني وهو ينظر إلى ساعة ذهبية على شكل قلب، تحيط بساعده.

جلسنا إلى طاولة متّسخة جدًّا في مقهى (البئر)، أحد أسوأ مقاهي العاصمة على الإطلاق، بئر قذرة وزبائن معظمهم من تجّار الإبل الصحراويين، الذين يزورون العاصمة من حين لآخر بغية التسوق أو زيارة المستشفيات أو وضع ثرواتهم في البنوك. يستريحون في مقاه كهذه ويتحدّثون بلهجة عدائية وألفاظ غير محتشمة. وكان أحدهم في تلك اللحظة بالذات، يتحدث عن لقاح الإبل بصوت مرتفع وضحكة خليعة، واصفًا بروك الجمل فوق الناقة وما يحدث بعد ذلك. لم أكن من اخترت ذلك المقهى ولا اختاره الروائي، ولكنْ ساقي البذيئة حين أرهقها المشي وأحسست بها تتخلخل، وكنّا على أبوابه.

- من أنت؟

هزني صوته بشدة، ولا أعرف لماذا، لكنْ قطعًا هي السطور التي لم يدعني أكملها من روايتي. لقد غار مني بلا شك، أحس بي كاتبًا قد يهزّ لمعانه إذا استمرّ، وأراد إسكاته. لا أريد أن أخمّن أكثر ولكنْ أودّ لو أعرف السبب

- أنا عبدالله حرفش.. عبدالله فرفار.. أنت تعرف ذلك.

- أقصد ما هويّتك؟
- لم أفهم أستاذي.

كانـــت ركبـــتاه قـــد كفّتا عن الارتعاش، لكنَّ عينيه ما تزالان مذعـــورتين، وحـــبّات العرق على وجهه ازداد عددها. رأيته ينادي الجرسون المشغول بالضحك الهمجي وسط تجّار الإبل ويطلب قهوة بلا سكر، وأمامه كوب قهوة بلا سكر لم يرشف منه بعد.

- ما قرأته ليس بداية رواية، ولكنْ تقريرًا أمنيًّا.

كشفني بلا شك، كشفني.. كشفني.. ليس الروائي ولكنْ غبائي الذي وظّفته من دون أن أدري في كتابة تقرير. إنه نفس التقرير الذي كتبته عن الواقعة منذ أكثر من عشر سنوات وما زال موجودًا في ملف التفاحة داخل الإدارة، وقد قفز إلى الأوراق الصفراء من دون أن أحسَّ بقفـــزته. الآن فقط أتذكّر وأودّ أن أخرج من هذه الورطة.. كيف.. كيف؟ أوشكت أن أبكي في تلك اللحظة، لا أريد أن تضيع منّي فكرة كـــتابة الـــرواية وقد أعددت لها الكثير، لست في الخدمة.. لكنَّ دودة الخدمـــة اللعينة هي التي تظهر في أي وقت. لم يكن بالتأكيد ثمّة مخرج، سوى أن أصارح الروائي بكلّ شيء، ولعلّه يستمر في تشجيعي.. كان يسألني مجدّدًا:

- لمـــاذا أحظى بشرف متابعتكم يا سيد؟.. أربعة أيام في ضيافتكم، هربت فيها الأفكار كلّها، والآن كاتب تقارير بساق خشبية يقرأ (علـــى سريري ماتت إيفا) ويجلس إلى طاولتي يحاورني.. تطوّرت أساليبكم.. تطوّرت. سيفاجأ الجميع حين يعرفون، خاصة صديقتنا المبدعة.

ذكـــر اســـم (س)، وخمّـــنت أنها الفتاة المندفعة، صاحبة سروال الجينـــز باهت اللون واستغربت من تسميتها بالمبدعة وقد تسلّم مخطوط

روايتها ذلك اليوم في استياء ظاهر. نهض من أمامي لينصرف ولا يبدو راغبًا في سماع ردّي. أمسكت بثيابه بقوة لدرجة أن تجّار الإبل ظنّوها مشاجرة بيننا، ورفعوا عصيهم لفضِّها. رجوته أن يجلس حتى أوضح له، وحين استجاب في النهاية وجلس، كان يطلب قهوة بلا سكّر للمرّة الثالثة وأمامه كوبان منها لم يمسّا.

حكيت له كلّ شيء: وظيفتي السابقة في جهاز الأمن الوطني، حادثي المباغت حين كنّا نراقب الطريق المؤدي إلى مزرعة مشبوهة، فقدان ساقي وأحد زميلي وإصابة الثالث بالشلل الرعاش الذي لم يشف منه قط، بائع الورد البنغالي في نيس حين كتب الرواية، الإسكافي الفقير في رواندا حين كتب، بائعة الهوى التائبة في سايغون وحصادها الرهيب، إلحاح تلك الفكرة المجنونة أن أكتب رواية، وماذا فعلت من أجل ذلك. لم آت بأي سيرة للمدلِّك زوج العمة (ث) ولا المشجّع حفار القبور ولا غيرهما من الشخصيات الأخرى التي صادفتها في حياتي، واعتقدت أنها تصلح للكتابة. كنت خائفًا أن تسرق والذي يملك أدوات مسنّنة مثل (أ. ت)، كتب بها رواية إيفا وغيرها، يستطيع أن يسرق شخوصي ويكتبها ولا أستطيع حتى تمييزها داخل نصوصه. كان يستمع إلي بلا شك وكنت على وشك أن أخبره بأنّني من أخرجه من تلك الضيافة التي ذكرها، لكنّني أحسست به قد استرخى تمامًا، شرب أكواب القهوة الثلاثة دفعة واحدة. و لم يطلب كوبًا جديدًا.

- حسنًا يا فرفار-حرفش.. أنا أصدقّك حقيقة.. بل أهنئك على هذا التغيير الكبير.

كان يضع يده على كتفي في مودّة ويبتسم، وأحسّ به في تلك اللحظة كاتبًا حقيقيًا تغاضى عن كلّ شيء مخز حدثته به، واحترم رغبتي الجديدة في التغيير. قطعًا سيشجّعني على تطوير الخيال، على

تطوير اللغة.. أنا أحبّه الآن وأودُّ لو أصبحنا صديقين. وفي اللحظة التي استرخيت فيها تمامًا، كنا بالفعل صديقين.. نتبادل حديثًا هادئًا.

- هل تعرف أطوار نمو الحشرة يا فرفار؟
- نسيتها.. كانت في درس العلوم في المدرسة الابتدائية.
- أذكّرك بها.. البيضة تتحول إلى يرقة وهي مخلوق دقيق، ثم إلى شرنقة داخل غشاء ثم تخرج من الغشاء لتصبح حشرة كاملة.. هل تذكّرت الآن؟
- نعم.. نعم.
- اليرقة قد تنمو وقد تموت قبل ذلك. الحشرة في الواقع لا تستطيع أن تحافظ على يرقاتها من الموت باكرًا إذا كان سيحدث، لكنّك تستطيع.
- لم أفهم أستاذي.

كنت حقيقة لا أفهم ماذا يقصد، ولا استطعت أن أجد رابطًا بين كتابة الروايات وأطوار النمو عند الحشرات.. سأستمع حتى أفهم.

- أنا أشبّه الكتابة بأطوار نمو الحشرة.. أنت كتبت يرقة لن تنمو إلى شرنقة وتكمل دورها. هذا التقرير الأمني مجرّد يرقة ميتة خرجت من ذهنك.. حاول أن تطورها إلى بقية الأطوار. هل تفهم الآن؟

لم أفهم جيدًا حقيقة، والذي فهمته أن الكتابة تحتاج إلى ثقافة كبيرة لا أملكها في الوقت الحاضر. ليس قراءة تجارب السحرة وعادات الزواج عند الشعوب، ثقافة كبيرة. ليس قراءة رواية واحدة فهمت بعضها و لم أفهم البعض الآخر، ثقافة كبيرة، وعلي أن أسعى إلى الثقافة حتى أكتب رواية. لم يزعجني أبدًا أن بدايتي شُبّهت باليرقة التي ماتت في طور النمو، ولن يزعجني أن تكون بداياتي المستقبلية يرقات أيضًا. قد أحاول تعديل ذلك التقرير الأمني اللئيم الذي كشفني، وتحويله إلى

بداية حقيقية ممتلئة بالخيال، وقد أمزّقه، وأجرب طقوسًا أخرى، يمكن أن تأتيني ببداية يدخل فيها المدلِّك زوج العمة والمشجع حفار القبور (ع. د). وكان أفضل ما فعلته في تلك الجلسة أنني لم أحسّ بالبؤس أو الاكتئاب، حين وصفت بكاتب التقارير ذي الساق الخشبية، لعل هذه الساق البذيئة ميزة، تميّزني من الآخرين أكثر من كونها لعنة. وفكرت أنها ربّما تساعدني كثيرًا حين أتشرد في الشوارع باحثًا عن رواية مشردة. في تلك الجلسة التي طالت بيني وبين الروائي (أ. ت)، الذي لم يعد يبدو متعجِّلاً، وأقلع عن النظر في ساعته، عرفت أشياء كثيرة عنه لم أكن أعرفها. كان شخصًا بسيطًا جدًّا يختفي وراء غطرسة مصطنعة، عمل فيما مضى مدرسًا للرياضيات في المدارس المتوسطة وهجر مهنة التدريس حين دهمته أعراض الكتابة. لقد قرأ كثيرًا كما أخبرني قبل أن يكتب، وسافر كثيرًا، ويملك مكتبة ضخمة سيأخذني إليها في أحد الأيام، وكان في الواقع يشبهني في شيء واحد.. فهو لم يتزوج قط.

- قريبًا لن تكون في حاجة إلى استلاف طقوسي والكتابة بها.. ستتعرف إلى طقوسك تدريجيًا.

كلام مشجِّع والله.. وبرغم ذلك سأجرّب طقوسه الأخرى.. طقوس العري والتشرّد، وأريه اليرقات التي أنتجها. وبدا مستعدًا تمامًا للجلوس معي والاستماع إلي في أي وقت، وفي هذا المقهى بالذات.. مقهى البئر، بعيدًا عن الجوقة كما سمّى رفاقه الآخرين الذين يجالسونه في قصر الجميز.. كان يقول..

- هذه أول مرّة أدخله وقد أعجبني.. هنا لا يعثر عليك قارئ مزعج، إضافة إلى أن فيه إيحاءات كثيرة.. أنظر.

والتفتُّ إلى ناحية الصحراويين تجار الإبل، كان أحدهم قد خلع نعليه المصنوعين من جلد الماعز، وضعهما على الأرض، وصعد إحدى

الطاولات، برك عليها رافعًا ثوبه، ومن تحته بانت سراويل متسخة وبدأ في الصراخ.. كان يقلد ناقة في ساعة المخاض، ورفاقه يضحكون، والنادل الوحيد في المقهى يقف متسمّرًا يتابع الطقس. ضحكت وضحك الروائي..

- وروايـة (لحظـة حب) لصديقتك المبدعة كما تسمّيها، تلك التي أعطتك إياها مخطوطًا.. هل هي يرقة ميتة أيضًا أم حشرة كاملة؟

كنت أسأله، وأحس بالطرب في داخلي أنني أحظى بود كاتب لامع كان منذ ساعة فقط على وشك أن يقهرني.

- اسمع يا فرفار.. موضوع اليرقات وما شابه ذلك، ينطبق عليك لا على الفتيات الجميلات واسعات العيون.. يرقة الفتاة تعادل حشرة كاملة عندك.. هذا ما نسمّيه مؤازرة الجمال.
- إذن ستكتب لها تقديمًا.. أليس كذلك؟
- لا أعرف.. سأجد حيلة ما للهروب من ذلك التقديم وإذا ما فشلت في الهروب.. سأكتب بحذر.

كلّمته عن اليساري (م. م) الذي أصبح تاجرًا للسيارات المستعملة، وكيف شككت في أول الأمر أنه بطل إيفا الرائعة. فقط أضيف بعض الخيال إلى قصته، وتحرّيت أمره لأجده بعيدًا عن الرواية. ضحك وكانت أسنانه شبيهة بأسنان المدلّك زوج العمّة، أسنان مدخّن قديم ربما عرف التدخين باكرًا، وقبل أن يعرف الكتابة. وسيجارته العاشرة من ماركة برنجي المحلية، تشتعل بين أصابعه. لم يكن يعرف (م. م)، ولا زار موسكو إلا قبل عامين فقط بمناسبة ترجمة إحدى رواياته إلى الروسية، عاد بعدها ليكتب (على سريري ماتت إيفا) من وحي تلك المشاهدات التي بهرته هناك. وحين سألني إن كنت أعرفه منذ فترة، وراقبته.. نفيت بشدة. لم أكن في الحقيقة متخصصًا في مراقبة كتّاب

الـــرواية ولا متعاطي الثقافة عمومًا، ولا رأيت (أ. ت) بالتحديد رؤية واضـــحة، إلا في ذلك اليوم الذي أتيت فيه إلى قصر الجميز باحثًا عنه. كـــنت أسمع به، ولم يكن سمعًا كثيرًا ولا متكرّرًا. وتلك المعلومات التي ذكرها عن نفسه ربما تكون محفوظة في إدارتنا، لكنّني لم أكن أعرفها.

كـــان صـــاحب المقهى قد انتبه إلى وجود غريبين وسط فوضى زبائـــنه الـــصحراويين، وأبناء الريف التي يبدو أنه تعوّدها ولم تعد تثير انتـــباهه. شـــاهدته مـــرتبكًا يغادر مقعده خلف الخزانة ويقترب منّا، وأيقـــنت من خبرتي الطويلة في رصد الارتباك، بأنه متوجّس من شيء ويـــبحث عـــن طمأنينة، وربما يمارس نشاطًا يدعو إلى التوجس. قال: مـــرحبًا.. مرحبًا، وسحب كرسيًّا إلى طاولتنا وجلس. كانت ابتسامته تكـــشف أســـنانًا من الذهب رُصّت بعناية على طول فمه، صوته مثل صـــوت عذراء مضطربة، وعلى يده اليسرى خاتمٌ كبيرٌ جدًّا تلمع في وسطه فاروصة خضراء. قال الروائي وهو ينهض ويحثّني على النهوض:

- فكّر فيه جيدًا يا فرفار.. ربما ينفع يرقةً من يرقاتك.

- 11 -

زيـــارتي لمكتبة أعلاف، لم تكن بغرض كتاب معين في هذه المرّة. كنت ممتلئًا بشهوة أن أمتلك مكتبة بعدّة رفوف مشحونة بالكتب، مثل تلك التي رأيتها في بيت الروائي (أ. ت)، وكان قد أخذني إليه البارحة لأرى كـــيف يقـــرأ وكيف يكتب. التقينا في مقهى البئر مجددًا. شاهدنا صحراويين جددًا، يمارسون نفس الطقوس التي شاهدناها من قبل، وبعض أبناء الريف الشمالي، يمارسون طقوسًا مختلفة، وأحدهم يعزف على آلة الطنبور المنتشرة بشدة في الشمال. تحدث إلينا صاحب المقهى، وتحدثنا إلـــيه، وكـــان بالفعـــل شخصية روائية، أكدها (أ. ت)، حين ذكرته بواحدة من شخصيات روايته (أبناء سعد المحتالين)، تلك التي كتبها في السجن كما قال، وهو يتأمل وجهه النظيف، وعينيه المكحّلتين بإتقان، وابتـــسامته الذهبـــية التي لم تفارق وجهه في تلك الدقائق التي أمضاها جالسًا معنا. قال بعد أن تركنا الرجل، وعاد إلى مقعده:

- يمكنك جعله ضحية أو مضحيًّا.. ينفع في كلا الحالتين.
- كيف؟
- الضحية من وقعت في فخ منصوب من دون أن تدري، وتكررت عليها الفخاخ بعد ذلك حتى أدمنت السقوط، والمضحّي هو الذي يذهب إلى الفخ بقدميه، ويظل باحثًا عن الفخاخ طوال حياته.. ما رأيك؟
- ما رأيك أنت أستاذي؟

- أنــا أرى أنه ضحية.. لو كتبته سأصنع له طفولة مضطربة في بيت ممــزق، ووسط أسرة ربُّها قاس عربيد، وربَّتها مستهترة، تركت عــيالها وفرَّت إلى ماخور. سأسكنه في حي ممتلئ بالجروح، مئات الفخاخ يمكن صنعها في حالته.

الكــلام كــبير جدًّا على عقلي، وصناعة الكتابة تزداد كلّ يوم تعقيدًا، وما قاله الروائي يبدو سهلاً على لسانه وصعبًا جدًّا لو كان قد خـــرج من لساني. أعرف أشخاصًا عديدين مثل صاحب المقهى وربما يفوقونه ليونة وتكسُّرًا، أشخاصًا في طفولتي، أشخاصًا في صباي المبكر، زمــلاءً في المدرســة وجيرانًا في الحي الذي نشأت فيه، ولم يكن أحد يــسميهم ضحايا أو مضحِّين، ولم نسع أبدًا للبحث عن بيئة صيَّرتهم هــؤلاء أو هــؤلاء.. شــيء من الحقيقة.. شيء من الخيال، وتصنع كتابتك.. كان صاحب المقهى أمامنا حقيقة كبيرة، وما يمكن كتابته في حقه، خيالاً يحتاج إلى ذهن ناضج.

دخلــت مكتــبة أعلاف ومحفظتي ممتلئة بجنيهات حسبتها بدقّة، وأحلــم بعــشرة كتب دفعة واحدة على الأقل.. تكون النواة الأولى لمكتبتي الوليدة. حين شاهدت مكتبة الروائي ذهلت.. ولم أتصوّر بتاتًا أن أحدًا يمكن أن يكون قد قرأ كلّ تلك الكتب، وبعضها في علوم لا تمــت للروايات بصلة كعلوم الطب والجغرافيا وحتى علم الفلك، لكنْ لمــاذا يقتنيها ما دام لن يقرأها.. أكيد أنه قرأها.. وأصبح كاتبًا محترمًا بفضل تلك القراءة.

- أنت مجددًا يا عبدالله فرفار؟.. هل عثرت على شيء يدين الكاتب في رواية إيفا؟

كان المسيحي (ر. م) يخاطبني بنفس وقاحته الجديدة التي تعلَّمها بعد تقاعدي القسري، ناسيًا صداقةً مريبة امتدّت بيننا سنوات طويلة،

ولا يبدو مقتنعًا بي قارئًا وزبونًا جديدًا لمكتبته يأتي باحثًا عن متعة القراءة فقط ولا شيء آخر. كان ثمة أفراد قليلون متباينو الأعمار، يتجوّلون بين رفوف الكتب، يقلّبون بعضها في تأنٍّ، ويلقون إلى بعضها نظرات متعجلة. ولمحت الرجل متوسط العمر الذي اشترى كتاب (الجنس في حياتنا)، يمسك بكتاب آخر اسمه (حياتك الجنسية بعد الخمسين)، ويبدو متلهّفًا لدفع ثمنه. كان ثمة شريط جديد يبث من ركن المكتبة على التلفزيون القديم الموضوع هناك، ويظهر فيه صاحب المكتبة ببذلة خضراء ورباط عنق مورد، يتحدث في استطلاع للرأي أجراه التلفزيون المحلي مع عدد من عارضي الكتب. كان يتحدث عن كتاب يصف حضارة الصين العملاقة، وصل إلى مكتبته حديثًا.

- قلت لك.. إنني خارج الخدمة.. أنت تعرف.
- نعم.. خارج الخدمة.. أعرف.

قالها بلا مبالاة، وانصرف من أمامي يطالع محفظة الرجل متوسط العمر التي انفتحت في تلك اللحظة، ولمحت فيها نقودًا قليلة جدًّا، خرجت كلّها ثمنًا للكتاب. حاولت أن أشفق على الرجل ولم أستطع.. أحتاج إلى زمن طويل لتعود إلى العواطف. اتّجهت مباشرة إلى رفّ الروايات، أخذت أتأملها كما أتأمل فتيات فاتنات يسبحن في بركة، ثم أخذت أنتقي العناوين بعيني، يعجبني بعضها ولا يعجبني البعض الآخر. وحين فرغت من انتقائي، سلمت المسيحي ما طلب وخرجت لا ألتفت إلى نظرة الاستغراب التي كانت في عينيه. غدًا سيعرف كلّ شيء حين يأتيه كتابي مطبوعًا ليضعه في مكتبته، كنت أحمل كيس الأعلاف ممتلئًا... أفكّر في المسيحي صاحب المكتبة بطريقة الروائي (أ. ت).. هنا لا يوجد ضحيّة ولا مضحّ، ولكنْ رجلٌ صلد يتاجر في الكتب حلالها وحرامها، عريها وسترها، ولو قُدّر له أن يكتب في رواية، سيكتب

بطـــريقة التقاريـــر الأمنية.. اليرقات الميتة. تاجر كتب صلد ومراوغ، وحـــاد ومستعدّ للموت من أجل قناعاته.. ربّما بالنسبة إليّ وأنا بذلك الخيال المتعثر ولكنْ بالنسبة للروائي (أ. ت)، سيكون ثمّة ماض غريب ومستقبل أغرب.. قرّرت أن أسأل الروائي وأرى ماذا يقول، وتذكّرت في نفـــس اللحظـــة أنني كتبت من قبل تلك الأوصاف الخاصة ببائع الكتب في تقرير قديم جدًّا، ما زال موجودًا في ملفّه لدى إدارتنا.

عثرت على خزانة صغيرة من الخشب، مكوَّنة من خمسة رفوف، في أحـــد محلات النجارة القريبة من مسكني، باعني إياها النجار بثمن معقـــول. حملـــتها علـــى سقف عربة ركشة بعد أن أحكمت ربطها بالحبال، وسائق الركشة يبدو متذمرًا، يتوتّر من اهتزازها على السقف، ويقـــف بـــين لحظة وأخرى، يتأكّد من أنها ما زالت مقيّدة جيدًا، ثم يواصـــل السير. كنت في صالة بيتي أتأمّل مكتبتي الوليدة، وقد رصّت علـــيها الكتب التي بالكاد شغلت نصف رفّها الأول. ستكبر المكتبة.. ســـتكبر بكـــلّ تأكيد، ستمتلئ بقيّة الرفوف، وسأخصّص واحدًا منها لـــرواياتي الـــتي سأكتبها. كنت أبتسم وأنا أرى خيالي قد ذهب بعيدًا جـــدًّا.. أصبحت الرواية الملحّة، روايات، ربّما لأنني اقتربت بشدة من عالم الكتابة، سرقت الروائي اللامع من جوقة معجبيه في معظم الوقت، وانفـــردت به في مقهى البئر، وسط الإيحاءات الغريبة وصاحب مقهى أنـــثوي يمكـــن أن يكـــون ضحية أو مضحيًّا. وقد قالت الفتاة (س)، صاحبة سراويل الجينـــز مرّة للروائي، في قصر الجميز، من دون أن تعبأ بـــي، إنها تستغرب من صداقته بواحد لا يعرف أحدٌ حتّى الآن من هو ولا كيف ظهر فجأة في عالمهم. لم يرد الروائي، وصفعتها في خيالي.. نعم صفعتها وتمنّيت أن أخبرها عن نظرية اليرقات، وكيف أن روايتها (لحظة حب)، هي في الواقع يرقة ميتة ما كانت ستصبح حشرة كاملة

لولا سواد عينيها. مؤازرة الجمال كما قال (أ. ت). وأتأمل وجه الفتاة بـــتمعّن، ولا أعثر على الجمال الكافي، الجمال الذي يقفز بأطوار نمو الحـــشرات. كانـــت بقايـــا حب الشباب موجودة بكثرة برغم كثافة المساحيق وكريم التقشير الذي دهن على الوجه.

- 12 -

كـــنت أقـــف أمام بيت العمة (ث)، أتأمل الأطباق اللاقطة التي احـــتلت مساحة السقف بالكامل وتستند إلى أعمدة كبيرة من الحديد الـــصدئ، وأفكّـــر في ذلك اللغط الذي أثير حولها، وما مدى ضررها للـــسكان الذين يؤجّرون أسقفهم لتركيبها. أخبرني المدلِّك يومًا، أنها امتياز لا يحصل عليه أحد بسهولة، ولا أعرف إن كانت كذلك فعلاً، واللغط لم يحسم في شأنها بعد.

كـــنت قـــد أخبرت الروائي (أ. ت)، عن المدلِّك زوج العمة والإيحـــاء الكبير الذي يحمله، كذلك أخبرته عن المشجع حفّار القبور (ع. د)، وجنونه الذي جاء بعد تكريمه من قبل رئيس البلاد. أخبرته بعد أن وثقت به، وتأكّدت أنه لن يسرق منّي شخصية أودُّ كتابتها، بـــل العكس كان يمدني بالشخصيات، ويحرّضني باستمرار على محاولة كـــتابة صـــاحب مقهى البئر، كلّما جلسنا أنا وهو منفردين في ذلك المقهى. حدث ذلك همسًا في قصر الجميز، وقد فرغنا من سماع ثلاثة فصول كاملة من رواية (لحظة حب) للروائية (س)، التي ستصدر قريبًا من دار نشر محلية، وبتقديم حذر للغاية، كتبه (أ. ت) مؤازرةً لجمال لم أحـــس أبـــدًا أنه جمال يشد المؤازرة. قرأت الفتاة بصوت لا يشبه صوتها الذي تتحدث به، أضافت إليه كثيرًا من الفراغات والتقطيعات والـــرنّات الباكية، وكانت تحرك يدها اليمنى التي لا تمسك المخطوط باســـتمرار، مرّة تضعها على قلبها، مرّة على بطنها أو شعرها المموّج

المصبوغ ببني غامق، وقد سقط عنه غطاء الرأس ذو الألوان المتداخلة.. فتاة مندفعة ورواية يرقة.. وجمع يشهق إعجابًا بعد كلّ سطر، واضطر أن اشهق أيضًا محاكاة للجميع. لم يكن ثمّة أحد يشرب شايًا أو قهوة أو يدخّن، ولا حامت أي نادلة من الإثيوبيات حول المكان. وأحيطت الطاولـة الـتي نجلس عليها بسياج من الحديد المدهون بالأبيض لمنع المتطفلين من إيذاء القراءة، وذلك بناء على تعليمات الفتاة. استمعت إلى عـبارات غير مفهومة أو غير مهضومة بالنسبة لي، ولم أستمع إلى قـصة فيها حكاية تشد.. عبارات مثل: "رصّعني بالجواهر إن كنت سلطانة، أو قيدني بالحبال واجلدني بسياط العذاب، إن كنت عبدة.. يـا سـلطان السلاطين".. عبارة مثل "في داخل عينيك ترقد الرغبة نائمـة.. أيقظهـا مـن رقادها.. أيقظها أرجوك.. أريدها مستيقظة وحمقاء، أنا أحب الحمق"، وكدت أضحك بشدة وانا أرى الفتاة تميل بجـسدها كـاملاً حـتى لامست الأرض، ثم ترفع رأسها قليلاً عن المخطوط.. كانت تبكي وتردد: "إنّها لحظة البكاء الأقسى في حياتي، لحظة أن انفجرت قنبلة الحزن داخل سعادتي الوردية.. أنظر إلى أشلاء الـسعادة.. أنظـر كيف تتبعثر هنا وهناك.. ولا مسعف أو طبيب". كـدت أضـحك بينما بقية الجوقة، شهقوا بعنف، ودوّت أياديهم مصفّقة.

ملـت إلى الروائي هامسًا، والفتاة (س) مشغولة بتلقي التهنئات، من أصدقائها الذين استطاعوا التنفس أخيرًا.. بمن فيهم الروائي (أ. ت) نفسه.

حدثـته عن المدلِّك وحفّار القبور وشخصيات أخرى عرفتها في حياتي.. قال: انتبه للمدلِّك.. صادقه، تعرّف إلى ماضيه وتطلّعاته بشكلّ جدي، وربّما تخرج بشيء.

فــتحت العمّة (ث) الباب، وبدت لي أصغر سنًا، وترتدي بلوزة فتاة في العشرين، ذات خطوط وألوان وصدر شبه مفتوح، بينما شعرها أسود بصبغة متقنة جدًّا. سارت أمامي إلى داخل البيت، وكان صندلها ذا كعــب عال لم أرها ترتدي مثله من قبل. لن أفكّر في سلوك العمّة الجديــد، ولا بدَّ تنتهجه إرضاء لزوج معتوه كاد أن يموت في دور لا يــستحق الموت من أجله. كان المدلّل موجودًا في صالة البيت، غارقًا وســط سحابة بيضاء من دخان التبغ، يرتدي ملابسه الداخلية القطنية مــن ماركة جيل، ويعبث بجهاز التحكم عن بعد الخاص بالتلفزيون، قافزًا من قناة إلى قناة من دون أن يستقرّ على واحدة، وأرى قراء كف ومغنّين ومتسابقي درّاجات وعناق أمريكي وأشياءَ أخرى تظهر وتختفي تباعًا. كانت ميدالية الحديد المكتوب عليها مسك الختام، تتأرجح على صدره، وصرخ حالما لحني أمامه:

- بــارك لي يــا عبدالله.. لقد حصلت على دور جديد في مسرحية (موت رجل أبله) التي ستعرض قريبًا على مسرح الشباب الأهلي.

أحســـست بانـــزعاج شديد، ليس من أجله بالطبع، ولكنْ من أجلـــي. أخاف أن أنشغل بوعكة جديدة من وعكاته أو موت حقيقي هذه المرّة ولا أقرأ أو أكتب. هو الآن بالذات محور البداية الجديدة التي سأبدأها، وأقطع فيها شوطًا كبيرًا لأفاجئ بها (أ. ت).. أريد أن أعرف عنه أشياء أجهلها، ثم أشعل خيالي وأرى أي يرقة ستخرج.

- لا تقل لي إنك الأبله الذي سيموت في المسرحية؟
- ليـــتني كنته يا فرفار.. ليتني.. كنت سأموت أفضل ألف مرّة من ذلك الفاشل الذي يسمي نفسه ممثلاً.

شعرت بارتياح، بل تنهدت بعمق وأنا أجلس بجانبه:

- لكنْ ما هو دورك في المسرحية؟

- في الواقع هو دور كبير بالرغم من أن بعض السطحيين قد يظنُّونه دورًا تافهًا.. أنا أحد الرجلين اللذين سيحملان المحفّة التي ينقل فيها الأبله بعد أن يموت.. أليس دورًا مميزًا وفيه حركة؟

لم أدر مـــاذا أقول حقيقة، وسؤال المدلِّك معلّق بيني وبينه يبحث عن إجابة، عيناه على وجهي مباشرة ويده كعود حطب جاف، تخبط على كتفي وأحس بالرعدة أكثر من إحساسي بالوجع. لا أستطيع أن أضـــحك، والموقـــف يدعو إلى الضحك. أي عامل نظافة من عمال المسرح بلا مخ، يستطيع أن يحمل محفّة، أي صعلوك مار بالطريق أثناء العـــرض، يـــستطيع أن يحمل محفة، أي واحد من الجمهور ينادى عليه بطريقة "يدك معنا يا أخ". يستطيع أن يمدّ يده في حمل محفّة. وتذكرت أنـــي رأيت مرّة فيلين في حديقة الحيوان التي كانت في وسط العاصمة وأزيلـــت بغـــرض اســـتثمار أرضـــها، يحمـــلان الحارس على محفّة بخـــرطوميهما، في استعراض صفّق له الجميع.. ولا أدري لماذا شعرت بالخـــوف فجأة من أن يكون المدلِّك يخبئ في ذلك الدور غير المحسوس مفاجأة ستربكنا كلّنا.

- لم تقل رأيك يا فرفار.. أظن أن الدور لم يعجبك.

كنت بعيدًا عنه، أفكر في الكَنْز الذي أمتلكه و لم أستطع استغلاله حتى الآن، ولو تمرّنت قليلاً على الكتابة لاستخرجت منه الدرر. ليتني كنت (أ. ت)، أو ليته كان يملك كنـــزي، كنت سأقرأ عملاً جليلاً.

- انتظر حتى أشاهد الدور على خشبة المسرح، وبعدها أقول رأيي.

بدا المدلِّك مبتهجًا، لمس ميدالية الحديد بيده، وألقى على المنفضة بقايا سيجارة مشتعلة من دون أن يطفئها. نادى على عمّتي التي جاءت مـــستقيمة وبـــلا انحناء في الظهر، تحمل كوبًا من عصير التبلدي الذي تعرف أنني أحبّه، وضعته أمامي..

- أخبري فرفار عن المفاجأة الأخرى.. أخبريه أنت.

جلست العمّة على مقعد مقابل لنا، وقد احمرَّ وجهها، وتبدو أصغر حتى من تلك اللحظة التي فتحت فيها الباب، ردّدت:

- سنقضي يومين في دبي، حصل عمّك على تذكرتين مجانيتين، وإقامة ليلتين في فندق جيد، سنسافر غدًا.

هذه بالذات مفاجأة وأكثر وقعًا من مفاجأة حامل المحفّة. وما تصورت العمّة أو زوجها المدلّك أبدًا، خارج حياتهما التي لم يغيراها قط منذ أن تعارفا وارتبطا، شجار روتيني مؤقت وود كبير. المدلّك يحبّ عمتي وهي تحبّه، وأنا صائد اليرقات علي أن أصطاد يرقة تنمو إلى حشرة. كان المدلّك يرفع وسادة قطنية يتكئ عليها، يخرج مغلّفًا أصفر عليه أختام متعددة، يفضّه ويلوّح بتذكرتين من تذاكر طيران (الاتحاد) الإماراتية، أمام وجهي، وورقة أخرى لا بدّ أنها إقامتهما في الفندق. "على بركة الله يا عم.. على بركة الله يا عمّة".. أنهض لأصافحهما ولا أحسّ بالفضول لمعرفة مصدر تمويل تلك الرحلة الفريدة، كان المدلّك سيفضحه لو أراد. سأؤجل استجوابه، أقصد سؤاله عن طفولته وشبابه، وكلّ ما يمكن أن يوحي في حياته حتى يعود، ولن أخطّ على أوراقي الصفراء شيئًا إلا بعد أن أتأكد تمامًا أنني لا أكتب تقريرًا. وقد راودتني كثيرًا فكرة تغيير تلك الأوراق، وأحضرت بالفعل أوراقًا بيضاء، نفرت منها حالما لمستها، لم تكن تملك أي إشعاع يشدني.

حين اقتربت من بيتي، تذكّرت فجأة أنني لم أشاهد المشجّع حفّار القبور (ع. د) منذ فترة، وبالتحديد منذ ذلك اليوم الذي شكاني فيه، وجاء برفقة العمّة وزوجها، جلس على طرف مقعده مهتزًا، وأخذ صحيفته في ذهول ومضى كضائع في الصحراء يتلفّت يمنة ويسرة.

كان الوقت عصرًا، وثمّة مباراة بين فريقين متنافسين أحدهما فريق البلاب الذي يتولى (ع. د)، رئاسة مشجعيه، تقام في الميدان الرياضي. وأرى عددًا من باعة الترمس والفول المحمّص وقصب السكر، منتشرين في المكان. جمهور عريض يحاول الدخول متدافعًا بالأيدي والأكتاف، ويبدو أن هناك أزمة في التذاكر. غيّرت اتجاهي وذهبت إلى الميدان، انحشرت وسط الهرج يدفعني وأدفعه، حتى اقتربت من شباك التذاكر. كان الموظف المختص بالبيع يعرفني جيدًا بحكم جيرتي القديمة للمكان، وتردّدي عليه في أحيان كثيرة حين كنت أحمل أوراقي الصفراء سعيًا وراء خرق أمني. ولا يبدو أنّه سمع بإصابتي وتقاعدي أو لاحظ ساقي الخشبية البذيئة لأنه صرخ حالما لمحني أمامه..

- افسحوا لجناب عبدالله حرفش.. افسحوا يا غوغاء..

وكانت لكلمة جناب التي نطقها بصوته الصارخ، فعل السحر في بلد يحب تلك الكلمة أو بالأحرى يخافها ويرتعد عند سماعها. وجدت الممر المؤدي إلى بوابة الدخول نظيفًا إلا من التراب وبقايا أكياس الترمس وعلب السجائر، وشددت ثوبي أكثر حتى تختفي ساقي البذيئة. لم أشكر موظف التذاكر، ولا أظنّه كان يتوقع أن أشكره. وعدم الشكر كان جزءًا من تدريبي الطويل.. لا تشكر أحدًا أبدًا.. دعه يؤدي لك خدمة ويشكرك.. كنت أسمع الموظف يصيح من خلفي.. شكرًا جنابك.. شكرًا جزيلاً على التشريف. وللحظة أحسست بالغبن أنني خارج الخدمة المميزة، وأركض خلف الروائيين ومتعاطي الثقافة الذين كانوا حتى عهد قريب مجرد ملفّات ركيكة، تعج بها إدارتنا، وضيوفًا غير كرام يبركون على أيديهم وأرجلهم استجداءً حين يؤخذون إلى دهاليزنا المظلمة. وكتابتي ما تزال يرقات حتى الآن لا أعرف هل ستتطور أم لا؟ لن يطول الوقت حتى يعرف موظف

التذاكـــر، وذلك الجمهور الذي سحرته كلمة جنابك، وكنس لي ممر الدخول، أنني مجرد نكرة خارج الخدمة وأعامل بعد ذلك كما يعاملني المـــسيحي (ر. م) صاحب المكتبة أو الخياط (خ. ر).. أنني فرفار ذو الساق الخشبية.

كانـــت المـــباراة قد بدأت حامية، والفوضى من بدايتها حامية كذلك، واتجهت مباشرة إلى حيث اعتاد المشجع (ع. د) على الجلوس، إنه ركن في مدرج الشعب، وضع عليه مقعد من الخيزران القوي، ربطه بسلـــسلة من الحديد إلى وتد مقوّس من الحديد أيضًا، ثبّته بنفسه على إسمـــنت المـــدرّج، ركن يعرفه الجميع، ولا يجلس عليه أحد مهما كثر الزحام حتى لو لم يأت المشجع، وأعرف أن له عدة أركان مماثلة في كلّ ميدان من ميادين العاصمة. كان الركن خاليًا ولا أثر للمشجع.

تلفّـــتُ باحثًا عنه وسط الجمهور العريض، لعله قد غير موقعه أو لعلّـــه يتمـــشّى من شدة التوتر، ولكنْ لا أثر. لم يكن المشجّع يحظى باهتمامي في الماضي، وفي كثير من الأحيان كنت أراه ولا أحييه حتى، وأتـــرك لـــه مهمة أن يحييني. الوضع مختلف الآن والمشجّع أحد أعمدة كتابتي التي سأكتبها ويجب أن أتقصّى حياته أيضًا مثلما سأتقصّى حياة المدلّك زوج العمّة.. شيء من الواقع.. أشياء من الخيال، وتأتي الكتابة الجـــيّدة. وفي تصفّحي للكتب التي اشتريتها مؤخرًا من أعلاف تمهيدًا لقـــراءتها كاملة، وشكّلت النواة الأولى لمكتبتي، أحسست بوجود واقع ووجود خيال يسير مع الواقع جنبًا إلى جنب.. إنّها صبغة الكتابة.. أي كتابة وليس كتابة (أ. ت) وحده.

كنت كما يبدو قد حجبت الرؤية عن عدد من المشجّعين المتعصبين كانـــوا يجلـــسون قريبين من ركن (ع. د) الخالي، صاحوا في وجهي أن أبتعد.. وقلت في صوت حاولت أن أغطي به على ضجيجهم:

- أبحث عن الريس لو سمحتم.

كان لقب الريس هو ما يعرف به (ع. د).. وسط مجتمع الكرة، وأيضًا وسط مجتمع البكاء حين يدفنون ميتًا قام بحفر قبره.

- الريس؟

صاح أحدهم..

- الــريس في القصر الأبيض.. اسأل عنه هناك.. أبعد من فضلك.. يا.. يا سلوكة.. أضعت الهدف يا ماسح الأحذية.. يا واطئ.

كــان القــصر الأبيض هو مستشفى المجانين الأكبر في العاصمة، حيث الضياع الحقيقي، إذن فقد ضاع مني المشجّع حفّار القبور مؤقّتًا. لن أحزن وسأفكّر كيف أكتبه.

- 13 -

(نشأ المدلّك في بيئة فقيرة في مدينة (سنكة) في شرق البلاد، كان أبـــوه بائع خضراوات متجوّلاً يستخدم صوته الأجش في المناداة على الخضراوات، وكانت أمه تساعد في مصروف البيت بتخمير اللبن وبيعه لجاراتهـــا. لم يكن المدلّك يحبّ أباه. يعتبره ظالمًا، وشاهده عدة مرّات أثنـــاء البـــيع، يمسك بأيدي النساء أو يلمس صدورهن. كان يخبر أمّه وتغضب، ويأتي أبوه ليضربه. كان يحبّ كرة القدم منذ صغره، يهرب مـــن البـــيت ليلعـــبها مع أبناء الجيران وشكّل معهم فريقًا سموه فريق (الجـــرجير) كانوا ينافسون به فرق الأحياء الأخرى ويصنعون كاسات من الورق الملوّن، يوزّعونها للفريق المنتصر).

اســـتمررت في القـــراءة أمام الروائي (أ. ت)، في مقهى البئر، راصـــدًا حياة المدلّك كما حكاها لي، بعد أن عاد مبهورًا برفقة العمّة (ث)، بعـــد يـــومين من المتعة الاستثنائية الجديدة في دبـــي، وذهبت لـــزيارتهما. كـــان يرتدي ثيابًا رياضية جديدة كتب عليها بخط أحمر متعرج (طيران الاتحاد) وبجوار الكتابة شعار تلك الشركة. على صدره ثـــلاث ميدالـــيات جديدة من حديد مشغول بفن على شكل قلوب حمـــراء، كتب عليها: مسك الختام، وواحدة رابعة يهزّها في يدهه لم أستطع مشاهدة كتابتها وخمّنت أن عليها (موت رجل أبله)، المسرحية الـــتي ســـتعرض قريبًا على مسرح الشباب الأهلي، ويؤدّي فيها دور حامـــل للمحفّـــة التي يرقد عليها الأبله الميت. وكانت العمّة في أبهى

زينة، ترتدي شعار طيران الاتحاد أيضًا ولكنْ في شكل بلوزة وتنورة واسعتين، وتضع كحلاً ثقيلاً على عينيها. شربت معهما شايًا شفافًا من ماركة ليبتون، أراه لأول مرّة في بيتهما، وتسلّمت هديتي التي أحضراها، من يد العمة وكانت قميصًا أصفر قصير الكمين وله أزرار لامعة. وثمة عبارة مطرّزة بخيوط زرقاء "فندق غلوم إخلاصي.. أنت في بيتك".

كان المدلِّك يحكي بلا توقف، حكى عن الشوارع النظيفة الواسعة والمتنزهات الأنيقة بأشجار لا يعرف أنواعها، السيارات الحديثة السريعة التي تخطف الأبصار، والأبراج في شارع الشيخ زايد التي أطارت عقله، وفكَّر أن الجن هو الذي بناها وليس البشر. وحين بدأ يتحدث عن الأسواق الممتلئة بكلّ شيء حتى السيقان التعويضية التي لا تشبه ساق الخشب عندي، سكت برهة، ثم قال مخاطبًا العمّة:

- حدثيه أنت عن الأسواق من فضلك.. النساء يفهمن في بعثرة النقود أكثر من الرجال.

لم تقل العمّة كلامًا كثيرًا. كانت تبتسم أو تضحك أو تقرص نفسها بأظفارها لتتأكد أنها لم تكن تحلم. وكانت تنبعث من جسدها رائحة عطر نفَّاذ بينما قارورة مضلّعة من الزجاج قريبة من يدها. استمعت إلى المدلِّك في صبر، واستطعت بعد أكثر من ساعة أن أدخل إلى موضوعي الذي أعتبره ملحًّا للغاية، حدّثته أولاً عن معنى الرواية، وأنها قصة طويلة تكتب في صبر، ولا تنجح إلا إذا كان فيها واقع وخيال. قال: طبعًا أعرفها.. قرأت روايات المغامرات في شبابي واستمتعت بروايات أرسين لوبين ومونت كريستو.. هل نسيت أنني ممثل يقرأ المسرحيات قبل أن يؤدي فيها دوره؟.. عيب يا عبدالله.. عيب يا فرفار.

كـــنت في الحقـــيقة قد نسيت مسألة تمثيله، وأنه ظل منذ شبابه المبكـــر، يطـــارد كتاب الدراما والمخرجين المسرحيين ليوظفوه في أي دور، ولا بدَّ يعرف معنى الرواية وربما أكثر مني قبل أن أتثقّف مؤخرًا. اعـــتذرت له وقبل اعتذاري ويده تمتد بين حين وآخر، تحرّك ميدالياته علـــى الصدر أو تخبط على كتفي وأحس بالرعدة. أخبرته أنني بصدد كـــتابة رواية وسيدخل فيها بلا شك، ويصبح مشهورًا أكثر، تتهافت علـــيه المسرحيات. لم يبد مستغربًا من كوني سأكتب رواية كما كنت أتوقـــع، قـــال في صـــوت لم يكن خشنًا كصوته المعتاد لكنّه مستفز، وتغاضيت عن استفزازه في سبيل مشروعي:

- طـــبعًا يـــا فرفار.. من حقِّك أن تفعل ما تشاء.. اكتبني واكتب عمـــتك الجميلة هذه واكتب تلك البيئة الوسخة التي كنت تعمل فـــيها.. أنـــا موافـــق... أعطني ورقة أكتب لك فيها موافقتي... أحضري ورقة وقلمًا لو سمحت.. هيا.

كـــان يصيح في العمّة، ولم تكن ثمّة حاجة لأن تقوم من جلستها المـــصدومة، فقـــد أخرجت ورقة من ورقي الأصفر، وقلمي الباركر، وسلّمتهما له حتى يكتب ما يريد كتابته.

كانت رواية (لحظة حب)، أو يرقة حب كما أسمّيها في سرّي ولا أجهر بتلك التسمية، للكاتبة الجديدة (س)، قد صدرت في تلك الأيام عـــن الدار المحليّة الفقيرة بتمويل ذاتي من الكاتبة، وأقيم لها حفل توقيع في صـــالة متواضـــعة اسمها صالة (رشا)، كانت مرصودة دائمًا لدينا باعتـــبارها تقـــيم أنـــشطة فـــيها شيء من الخلل. ولم يكن ذلك من اختـــصاصي، فقـــد كنت بعيدًا عن رصد الثقافة أيام عملي إلا نادرًا، لكـــنّني أعرف. جلست (س) على طاولة ممتلئة بالنسخ ورأيت زحامًا غـــريبًا عليها ومن مختلف الأعمار. كلّ يشتري نسخته ويحظى بتوقيع

الكاتـــبة وصـــورة بجانـــبها يلتقطها الشاب الذي كان يحمل الكتابين الضخم والهزيل، في قصر الجميز و لم أهتم بمعرفة اسمه وكانت (س) بلا ســـروال جينـــز باهت اللون كما اعتدت على رؤيتها دائمًا، ترتدي تـــنورة خضراء، فوقها قميص قطني أبيض، وتضع على رأسها طرحة سوداء مشبوكة بدبابيس لا تسمح لها بالسقوط المتكرّر لكشف الشعر. هيئة إعلامية بلا شك.. واحتشام مؤقّت من أجل الصحافة التي ستنقل حفل التوقيع.. تلك الفتاة تستحق الكثير من الاهتمام من زملائي الذين ما يزالون في الخدمة بلا شك.

ذلك اليوم أحسست بالغيرة، غيرة حقيقية وأنا أرى الرواية التي قـــال (أ. ت) إنّها يرقة، تحولت إلى حشرة كاملة مؤازرةً للجمال، تسوَّق أمامي هكذا، ولم أكتب حتى الآن سوى تقرير التفاحة الأمني الـــذي كـــشف أمري. قرأت كتابين من كتبـــي التي أحضرها من أعلاف، وأحسست أنني أستطيع أن أكتب مثلهما، لكنْ برغم ذلك لم أكتب. استمعت إلى كلمة (أ. ت) التي ألقاها في الاحتفال بحذر أيـــضًا، متحدثًا عن وظيفة الكتابة وتشجيعه للكاتبة (س)، من دون أن يمجّد روايتها.. إنها تقريبًا نفس الكلمة التي كتبها تقديمًا للكتاب. استمعت إليه وتمزقت، تسلّمتُ نسختي الموقّعة في عجل، وخرجت مـــن هـــناك رأسًـــا إلى ورقي الأصفر. نـــزعت ساقي البذيئة من جسدي، خلعت ملابسي كلّها، وجلست عاريًا أستعيد قصة المدلِّك زوج العمة وأكتب. الطقس العاري الذي ربما يمنحني يرقة تنمو.. لا أدري.

انتهـــيت مـــن القراءة منهكًا وأتصبّب عرقًا، ورفعت بصري إلى الروائـــي أحاول أن أتقصى تعابيره لأقرأ إعجابًا أو ذمًّا في حق بدايتي، خاصـــة أنه لم يقاطعني هذه المرّة. جعلني أمضي في القراءة حتى النهاية

ويـــبدو أنه كان يستمع. كان مقهى البئر شبه خال في هذه الساعة من الـــنهار، صاحبه الضحية أو المضحّي، مشغول بالعبث في خاتمه الضخم ذي الفاروصة الخضراء، يخرجه ويدخله في إصبعه بلا توقّف وعلى عينيه نظـــرة ثعـــبان. النادل الوحيد في المقهى مسترخ على مقعد ممزّق من الحـــبال في شبه رقدة، وثمّة امرأة زنجية في أوائل الثلاثينات من العمر، تـــتأمّل عـــددًا من الصور، أخرجتها من حقيبتها القماشية، وتبكي في صمت.

– ها.. ما رأيك أستاذي.. يرقة ميتة أيضًا؟.

قلـــت وقد مرّت عدة دقائق بعد أن انتهيت من القراءة و لم يقل الروائـــي شـــيئًا بعد، وخلته يفكّر في المرأة الزنجية أكثر من تفكيره في بدايتي التي قرأها، لا بدّ أن المرأة الباكية أمام الصور، توحي إليه بشيء. قال:

– طبعًا يرقة يا فرفار.. لكنّها لم تمت بعد.

خفق قلبـــي بشدة:

– ماذا تعني؟

– التزمت بالواقع حرفيًا في حكاية المدلّك، نفس حكايته التي حكاها لك، و لم تضف إليها شيئًا من الخيال. نشأ في بيئة فقيرة، و لم تحك عـــن تلك البيئة الفقيرة التي فيها قطعًا ملابس ومشاعر ممزّقة، فيها غـــيرة وصراع وتهافت وأشياء أخرى. الأم تبيع اللبن الرائب و لم تكـــتب شـــيئًا عن مصدر اللبن في ذلك البيت الفقير، هل كانت تسرقه أم تحلبه من عنـــزة جائعة؟ المدلّك يكره أباه لأنه ظالم.. أي أب ظـــالم يـــا أخي في نظر أبنائه، حتى أبـــي وأبيك. أين ردود أفعال الكره الذي يكتب في رواية.. أن يمزق قميص والده المفضل مـــثلاً.. أن يتلف شيئًا من خضراواته، أن يتآمر مع الصبية لوضع

حجر أمام حماره الذي يجر عربة الخضراوات.. أنت لم تذكر أن ثمّة حمـــارًا يجرُّ عربة الخضراوات.. لا أظنها عربة تويوتا أو مرسيدس، ألـــيس كـــذلك؟.. طبخة نيئة غرفتها بسرعة، لو عدت إلى بيتك وتركتها أكثر على النار.. ربما تنضج.. ربما لا تموت اليرقة.

كلام كبير جدًّا، أعجبني وأغاظني في نفس الوقت. وأستغرب بـــشدة أن أصبح في زمن قليل، محورًا من محاور ذلك الكاتب الذي يعتـــبره الكـــثيرون نجمًـــا متغطرسًا، تصعب مصادقته، وكان ذلك انطباعي أيضًا حين رأيته أول مرّة في قصر الجميز يحكي عن طقوس كتابـــته الغريبة، وبدا لي وجهه، وجه ناقة ولا أعرف لماذا وجه ناقة بالـــتحديد؟ صـــحيح أنـــني اســـتلفت طقوســـه نفسها وحاولت اســـتخدامها، لكنَّ الغريب في الأمر، أنني قريب منه جدًّا.. وأولئك الذين يعرفونه من قبلي ويجالسونه باستمرار، لماذا لم يقتربوا منه كما اقتربت؟ سأعود إلى النار مرّة أخرى.. طقس العري نفسه في غرفة ليس فيها ذرة هواء، أعدّل اليرقة حتى لا تموت، سأجعل من طفولة المـــدلِّك في مديـــنة ســـنكة، طفولة أخرى تبتعد قليلاً عن طفولته الحقيقية، وأرى ما ينتجه خيالي الذي بدا يتّسع بلا شك، وقد قرأت عـــددًا مـــن الكتب لا بأس به بالنسبة لمبتدئ.. قرأت (أبناء سعد المحـــتالون) أيضًا، تلك التي كتبها في السجن، وأعجبتني جدًّا، لكنْ ليس مثل رواية إيفا. هذه كانت سهلة وتحكي عن مجموعة من عمال البـــناء الآســـيويين الـــذين كثرت أعدادهم في البلاد مؤخرا، وهم يتخـــبطون وســـط السكان المحليين في حي فقير اسمه حي (سعد)، يغازلـــون نـــساءه ويصطادون قططه وكلابه التي يقول سكان الحي إنّهم يطبخونها ويزيِّنون بها موائدهم. كانت الرواية ممتلئة بالمفارقات الساحرة ومشوّقة.

كـــان الروائي كأنه قد قرأ أفكاري المستغربة من اهتمامه بـــي، قال فجأة:

- لا تـــستغرب مـــن اهتمامي بك يا فرفار.. أنا في الواقع أعجبت بنـــزعتك إلى التغيير من تلك الحياة التي كنت تعيشها.. وأساعدك حـــتى لا تعـــود كاتب تقارير من جديد. إنه جزء من رسالتي في الحياة التي لن أتخلى عنها حتى أموت.
- وهل تعتقد أنني سأنجح في كتابة المدلّك بصورة جيّدة في النهاية؟
- طـــبعًا ســـتنجح.. المـــدلّك وحفار القبور.. وعشرات الحكايات والـــتجارب التي توجد في ذهنك وتحتاج إلى الكثير حتى تخرج.. دعـــني أحدّثك عن هذه المرأة التي تبكي أمام الصور.. من خيالي طبعًا لأنني لا أعرف عنها شيئًا.

كانـــت المرأة الزنجية الآن قد اختصّت إحدى الصور باهتمام أكثـــر، وضعتها أمامها على الطاولة بعد أن نظّفتها جيِّدًا بحزمة من مـــناديل الـــورق، بينما أعادت الصور الأخرى إلى حقيبة القماش. أخرجت من نفس الحقيبة إصبع شفاه أحمر، وقلمًا لتزيين الحواجب، ومـــشطًا أســـود بعض أسنانه مكسورة، وفيه بقايا شعر. مسحت دموعها بمنديل أحمر متّسخ، وبدأت تتزين وتمشط شعرها مستخدمة كـــلّ ما أخرجته من الحقيبة. كنّا نراقبها خلسة. النادل الوحيد ما زال مـــسترخيًا على مقعد الحبال. صاحب المقهى توقف عن العبث بالخاتم، نهض من جلسته وخرج إلى الطريق والروائي يتحدّث كأنه يكـــتب روايـــة، وأنا أصاب بالدهشة لبراعته، وبإحباط شديد من إخفاقـــي.. وبعد مدّة ليست بالقصيرة في درب المثقّفين.. ما زلت فرفار.. صائد اليرقات:

"أعرف أنك لم تمت.

يخبرني قلبي الذي تعرف صدقه جيّدًا وجرّبته في مرّات كثيرة، أنك لم تمت. صحيح أنك تمردت، وأنك تركت مدينة صرخت حين رأيتها لأول مرّة ونحن نهبط من طائرة الفوكرز الصغيرة التي أقلّتنا من الجنوب: هذه مدينتي.. هذه مدينتي، لتعود مرّة أخرى استوائيًا حارًّا ومشرّدًا في غابات لا تستطيع أن تتذكّر فيها حبّنا، لكنّك بقيت حيًّا. وأجلس الآن في مقهى صامت بلا روح، أمامي نادل مرهق ينام جالسًا على مقعده، رجل مسن لا بدَّ أنّه صاحب المقهى، يبدو كامرأة مسنة، غريبان أحدهما بساق خشبية، يتحدّثان في همس ولا بدَّ كانا زميلي دراسة أو سجن في الماضي، التقيا مصادفة ويستعيدان بعض الذكريات. أمامي صورتك الأخيرة التي التقطها لك مصور جوّال في حديقة كنّا نتنزه فيها معًا. هي صورة لكنْ لا تبدو في عيني كذلك.. بل حقيقتك مجسّدة وأتزيّن لها الآن. أضع كحلي وأحمر شفاهي، أرسم حاجبيّ وأمشّط شعري وأعرف أنّك ستنهض من المائدة وتعانقني. بالأمس زارني عدد من أصدقائك القدامى، أولئك الذين كنت تعمل معهم في فرقة المشاة. العسكريون الصارمون الخشنون حين يدخلون بيتي بملابس مدنية وعواطف تنتمي لعواطف البشر، كنت تعمل معهم وكنت صارمًا عندهم، وهشًّا رقيقًا عندي.. سأنتظرك.. عد أرجوك.. إنهض من المائدة.. حيي الغريبين المتهامسين بذكرياتهما، وأيقظ النادل المسترخي حتى يأتيك بالشاي المخلوط بخمس ملاعق من السكر، الشاي الذي تحبه دائمًا هكذا".

بداية قويّة يا (أ. ت).. قويّة بلا شك. الخيال الذي ينتشل حقيقة صغيرة، ويحوِّلها إلى نص ممتلئ، امرأة باكية تتزين أمام صورة في مقهى متّسخ، تصبح حبيبة تنتظر حبيبًا تركها وفرّ إلى الجنوب متمرِّدًا على النظم ولم تيأس من انتظاره. الفرق بيننا شاسع جدًّا.. أنت محترف وأنا

مبتدئ، صائد الحشرات الكاملة وصائد يرقاتها.. لكنّني لن أهزم أبدًا.. سأمـــضي متخبّطًا فيما بدأته حتى أصبح مثلك يا (أ. ت).. لا أريد أن أســـألك عـــن بداياتك، حين هجرت تدريس الرياضيات في المدارس المتوســـطة.. لا بدَّ أنها كانت أقوى من بداياتي لأنك هجرت التدريس مـــن أجلـــها، بعكـــسي أنا الذي هجَرَته مهنته، وعرف مصادفة أن أشخاصًـــا لا علاقة لهم بالكتابة أصبحوا كتابًا.. ثم ألحّت عليه الفكرة المجنونة أن يصبح مثلهم.

- 14 -

(موت رجل أبله).

عنوان المسرحية الثانية التي أحضرها الآن بإلحاح من المدلِّك الذي جـــاء إلى بيتي ثلاث مرّات خلال أسبوع واحد، ليبعثر قراءتي وكتابتي ويذكـــرني بموعد المسرحية التي ستعرض على مسرح الشباب الأهلي، ويمـــثل فـــيها دورًا هو في الحقيقة ليس دورًا وإنما "تكملة عدد" كما يقولـــون. لم يكـــن في الحقيقة أي داع لإلحاح المدلِّك بهذه الصورة، وكـــنت أنـــوي حضور المسرحية طواعية، فقد غدا مشروعي الملحّ. أعدت كتابة بدايتي عنه مرّة أخرى وأحسست بارتياح كبير.. هذه بلا شك ستعجب (أ. ت) حين أعرضها عليه في مقهى البئر.. فيها خيال.. أنا أكيد من ذلك، اخترعت فيها أشياء لم يحكها المدلِّك، إضافة إلى لغة حاولت أن أقلد بها لغة (أ. ت).

الـــزحام لـــيس كثيفًا أمام باب المسرح، ولا يشبه زحام الميدان الرياضـــي قرب بيتي. لا تدافع ولا صراخ ولا باعة ترمس أو مرطبات منتـــشرون، ولكـــنْ جمهورٌ متأنق يقف في دوره أمام شبّاك التذاكر، يـــشتري تذاكـــره في صـــمت ويدخل. والمدلِّك ينتظرني عند الباب الجانبـــــي، حيث يدخل الصفوة. ملابسه عادية جدًّا: بنطلون أسود وقميص أبيض، ولم تكن ثمة ميدالية تتدلى من عنقه. خامرتني فكرة أن أفتش جيوبه بحثًا عن سم أو حبوب مخدرة، لكنْ تذكرت أن دوره هذه المـــرّة بعيدٌ عن الإغماء. كانت العمة (ث) هناك أيضًا، أنيقة ومبتسمة

ومستقيمة في وقفتها بلا انحناء في الظهر، ترتدي ملابس سيدة وقور، وتضع عطرها النفّاذ الذي أحضرته من دبي. أرادت أن تجلس بجانبي أثناء عرض المسرحية، واعتذرت لها برفق، فقد كنت على موعد مع (أ. ت)، وكان جالسًا في مقعده، يحدق نحو الستار المغلق للمسرح في قلق. شاهدت الروائية الجديدة (س)، وقد عادت إلى سروال الجينز باهت اللون وطرحة الحرير التي تنزلق من رأسها كاشفة الشعر. لم تكن من توابع الصفوة هذه المرّة، ولا جلست قرب الروائي، كانت على بعد ستة مقاعد من مكانه، وبجوارها شاب منكوش الشعر، يحمل دفترًا كبيرًا ويضع قلمًا أزرق على أذنه. كان يشبه الصحفيين الذين يتسكّعون حول الثقافة بلا إمكانيات. لقد نجحت (س) بلا شك، نجحت بيرقة كانت ستظل يرقة لو كتبتها أنا عبدالله فرفار أو غيري من المهابيل الذين يملأون المقاهي بالثرثرة ودخان السجائر. بـ "مؤازرة الجمال".. ولا كانت جميلة أو تقترب من الجمال في نظري، وقد تنكرت للمؤازرة كما يبدو، وتجلس الآن بعيدة، والشاب يهمس في أذنها، وأشاهد صدرها يعلو وينخفض.. تتنفس- لا شك- بإطرائه.

مضى العرض بطيئًا مملاً، وأعرف أن العروض التي يقدمها مسرح الشباب الأهلي، دائمًا ما تحفل بمثل ذلك الملل. يسمّونه تجريبيًا وأسميه تخريبيًا، ولا تستطيع إدارتنا الأمنية مهما اجتهدت، أن تمسك على مخرجي ذلك المسرح دليلاً ذا جدوى. كانوا يسبُّون الوطن، ويزدرون التراب، ويتصعلكون ويخرجون ألسنتهم ولا يفهم أحد. وقد كان الأبله المفترض أن يموت في نهاية العرض ويحمله المدلِّك بمساعدة شخص آخر، يرتدي ملابس رثّة، يرقص أحيانًا، يغنّي أحيانًا، يقرأ الشعر في صوت باك، يتعثّر بالنساء اللائي يمشين أمامه، يصطدم بأكتاف الرجال.

ووقــف مرّة أمام شجرة ذابلة، مكتوب عليها: الحريّة.. وبكى.. أمام دكّــان يبــيع مواد البناء، وضحك. سقط في حفرة، وضرب رأسه في عامــود مــن الخشب، وفي النهاية سأله رجل أنيق كان يحمل سلاحًا شــهره في وجهــه.. هل أنت الصرصور الذي يسكن بالوعتي؟.. قال نعم، فأطلق عليه الرجل الرصاص، سقط على الأرض وذهب الرجل في خطى ثابتة، هنا دخل المدلّك ورفيقه يحملان محفّة ممزقة، وضعاه عليها وانــصرفا، ووقف جمهور المشاهدين وهم يصفّقون، متوقّعين أن يغلق الــستار معلــنًا انتهاء المسرحية، لكنَّ الستار لم يغلق. عاد المدلّك إلى المــسرح مــرّة أخرى، كان يجرّ المحفّة على الأرض وهي تحوي الممثل الــذي أدى دور الأبلــه. وقف قريبًا من الحافة والممثل مسجّى أمامه صــامتًا ولا بدَّ مندهشًا، وأخذ يصرخ بصوت لم أكن أعرف أبدًا أنه يملكه وهو يشير تارة إلى المحفّة وتارة إلى الجمهور.

- ارقد بسلام يا بني، ارقد بسلام. دمك لن يضيع هدرًا أبدًا في بلد العــدل والحرية والديمقراطية، لن يضيع وآلاف العيون تحرس أمن الــوطن، آلاف الــرجال الأفذاذ يحمون التراب، يصدّون أولئك الخــونة الذين يودّون رؤية الوطن أشلاءً.. تلك الأحزاب الخبيثة، تلــك القاذورات، أرقد يا شهيد.. أرقد بسلام... كلّنا فداؤك.. كلّــنا فــداء الوطن... عاش قادتنا الأوفياء... تسقط الشيوعية.. تسقط الإمبريالية.. تسقط أمريكا.

وقفت مذعورًا وأحس بشيء من المغص في أسفل بطني. إذن فقد كانــت تلــك هــي المفاجــأة التي أحسست أنها ستحدث وكذّبت إحــساسي، لا يمكن أن يكون كلّ ذلك الإلحاح في دعوتي، لأشاهد رجــلاً يــدخل ويخرج بلا دور.. كان وراءه ما وراءه. سمعت هتافًا شــديدًا يــدوّي في الصالة.. الله أكبر.. الله أكبر.. يسقط الخونة...

تسقط الشيوعية.. تسقط الإمبريالية.. تسقط أمريكا، وتدافع عدد كبير من الحاضرين حتى المسرح، حملوا المدلِّك على أكتافهم، خرجوا به من الباب الرئيسي للمسرح وهتافهم يبتعد شيئًا فشيئًا.. والستار ما زال مفتوحًا، وقد دخل عدد كبير من ممثلي المسرحية، ومخرجها إلى المسرح من خلف الكواليس، يستطلعون الأمر بينما نهض الممثل البطل من محفّته وأخذ يتابع الموقف في ذهول. كانت العمّة تجلس على مقعدها وسط الهرج، كتمثال من الشمع، الروائي (أ. ت)، خرج مسرعًا من دون أن يودعني، وبقية الصفوة الذين شاركونا مقاعد الصفوف الأولى، أغلبهم هرول مبتعدًا وقد اكتست وجوههم بخوف حقيقي. لم أكن غاضبًا أبدًا من فوضى المدلِّك التي أحدثها، على العكس اغتبطت جدًّا، لأن المدلِّك أولاً كان شخصية وطنية في نظري تلك اللحظة، وكنت أظنه طيلة معرفتي به شخصية بلا قيمة، من تلك الشخصيات التي يطلق عليها في تقاريرنا الأمنية "بلا ملابس"، وتركن ملفاها في خزانة بعيدة عن النبش اليومي. ثانيًا لأن شخصيتي التي أمتلكها، تمنحني في كلِّ يوم مفاجأة جديدة.. مفاجأة تعجّل بالكتابة الناضجة. شخصية كنز كما أقول دائمًا.

لاحقًا عرفنا أن المدلِّك، كان قد عطَّل كهرباء الستار حتى لا ينغلق في نهاية المسرحية، صرخ في الأبله الممثل أن يظلَّ ساكنًا على محفَّته لا يغادرها، وجرّه بسرعة غريبة إلى داخل المسرح مرّة أخرى. اكتشفنا أن زوج العمة قد نسف مسرحية (موت رجل أبله) في يوم افتتاحها نسفًا تامًا. كانت قائمة على نقد السلطة، الشعب الأبله الذي يتخبط في الشوارع، يقوم ويقع، يرقص ويغني لأن لا شيء آخر يفعله غير الرقص والغناء. يبكي أمام حرية ميتة، ويضحك أمام محل أدوات البناء الذي يرمز إلى التعمير غير المتاح لأمثاله.. ثم يضرب برصاص

ســـلطوي بارد، وتأتي المساعدة الخارجية، لتجده ميتًا يحمل على محفّة لدفـــنه. كـــان المخـــرج (ع. ج)، أحد أهم مخرجي مسرح الشباب التجريبـــي، والذي يملك ملفًّا ضخمًا في إدارتنا بوصفه يساريًا مخرّبًا، يشد شعره من الغيظ، وقد شاهد نصَّه الانتقادي، يتحول في النهاية إلى مظاهرة كبرى لتأييد السلطة.

أخـــذت العمّة إلى بيتي مؤقّتًا وكانت ما تزال مصدومة. صدمة دبـــي التي جاءت تحملها حين عادت من هناك، تلاشت فجأة، لتحلّ محلـــها صـــدمة زوجها المحمول على الأكتاف في مظاهرة ليلية كنت أتابعها على هاتفي الجوال، وأنا أتصل بين لحظة وأخرى ببعض زملائي القدامى في الأمن الوطني الذين كانوا يرصدون المظاهرة منعًا من تسلُّل عناصر تخريبية إليها، كما يحدث دائمًا في مثل تلك الحالات.

مـــع الخيوط الأولى للفجر جاء المدلِّك إلى بيتي باحثًا عن زوجته. كـــان يترنَّح من التعب، حلقه يابس وعنقه بلا ميداليات، ويسأل عن عشاء وسيجارة، وغفا على مقعده من دون أن يأكل أو يدخن. العمّة أيـــضًا كانـــت غافية على مقعد، وكنت في قمة التوهج والاستيقاظ. ألغيت بدايتي المعدّلة التي كتبتها، وجلست بلا أي طقس محدد، أكتب بدايـــة جديـــدة. كانت بدايتي من حيث يجب أن تنتهي الحكاية.. من صـــوت المـــدلِّك علـــى خشبة المسرح، حين ألغى بكلّ بساطة فكرة مـــسرحية ربمـــا استغرقت زمنًا طويلاً عند من كتبها وأخرجها. حين يـــستيقظ سيسألني عن رأيي في الدور الذي أداه، وسأكون أمينًا معه، أتفِّه دور حامل المحفّة، وأمجِّد الدور الآخر. ليس دور المجنون الذي ألقى خطـــبة تحولت إلى مظاهرة، ولكنْ دور صاحب الكنـــز الذي سيغيّر كتابتي.

- 15 -

لم يكن الروائي (أ. ت) موجودًا في مقهى البئر، حيث اعتدت أن ألتقيه باكرًا، نجلس بانفراد نتحدث عن يرقاتي وحشراته الكاملة، قبل أن أتوجّه معه، أو يتوجّه وحده للقاء أصدقائه الآخرين في قصر الجميز. كان هاتفه المحمول مغلقًا طَوال يوم أمس، وفكّرت أنه مريض ربّما، أو بدأ كتابة رواية جديدة من تلك الروايات التي يتشرّد فيها أو ينغلق في حجرته، أو يدخل السجن، أو يستأجر بيوت الزار الموحلة في سبيل إنجازها. لعلّه يكتب لاعب كرة القدم الفقير الذي سيصبح وزيرًا كما نوّه من قبل، أو لعل بدايته التي ارتجلها أمامي عن المرأة الزنجية الباكية في مقهى البئر، أعجبته وأراد إكمالها في مشروع جديد، وأعرف أنه يغدو مجنونًا حين يكتب، وربّما ركبَ طائرة عسكرية إلى مواقع الحرب في الجنوب من أجل تلك الرواية، عرفت ذلك منه ومن مراقبتي له أثناء ارتجاله لفقرة المرأة الباكية أمامي في ذلك اليوم.. كانت عيناه تشعّان بالجنون.

ظهر أمس وحين استيقظ المدلّك من غفوته في بيتي، ودعك عينيه، وشاهد أكثر من عشر صفحات صفراء ممتلئة بالكتابة مرتّبة على الطاولة، ضحك.. عرف أنه أوحى لي بشيء. لم يمدّ يده إلى أي ورقة، لكنَّه أخرج من جيبه ميدالياته الأربع، ثلاثًا منها هي مسك الختام، والرابعة لم يكن مكتوبٌ عليها.. "موت رجل أبله"، ولكنْ "حياة رجل شهيد". إذن كان المدلّك قد خطّط لتلك المظاهرة الصاخبة منذ فترة،

سـافر بتخطـيطه إلى دبــي، وكتبه في ميدالية مشغولة بفن. علّق ميدالياته الأربع على صدره، والتفت إليّ.. كانت عيناه تبرقان بشدّة

- قضيت على الخونة يا فرفار.. أليس كذلك؟
- لكـنَّك قضيت على مستقبلك في التمثيل أيضًا.. لن يوظفك أحد مرّة أخرى في مسرحية.
- من قال لك ذلك؟

هيّج بغتة، اهتزت ميدالياته على الصدر بعنف..

- مـن قـال لـك ذلك؟.. أمس كانت الدولة كلُّها تحملني على الأكتاف، وعرض علي مدير المبيعات في شركة (ناني) للمشروبات الغازيـة أن أصـور إعلانًا لمشروباته.. لقد وصلت إلى التلفزيون أخـيرًا.. وصلت إلى التلفزيون.. انهضي يا امرأة واسمعي الأخبار، انهضي.

كـان يهـز العمّة المكوّمة على مقعدها وتصدر شخيرًا متقطّعًا، وضـرب بيده الأخرى على الطاولة فاهتزت الأوراق التي كتبتها عنه. كان ما شاهدته بعد ذلك غريبًا، نهضت العمّة بخفّة لا تشبه ثقل العمر ولا جمـود أمس، عانقته بقوة، وتماسكا وهما يخرجان من بيتي.. سمعت عمّتي تتحدث بصوت ناعم وكانت تقول:

- سنذهب إلى دبـي مرّة أخرى. أليس كذلك؟

كـان مقهى البئر مختلفًا في ذلك اليوم. كان بلا صحراويين ولا أبـناء ريف من الذين يستريحون فيه حين يغزون المدينة. ورأيت المئات مـن أبناء الجنوب المقيمين في العاصمة، يشغلون أغلب موائده أو كلّها تقـريبًا، يرتدون ثيابًا إفريقية مزركشة بالأحمر والأصفر والبنفسجي، ويحملون أعلامًا لا تشبه علم البلاد، وقد تصدّرت صورة كبيرة لواحد من أشهر زعمائهم، والذي مات منذ فترة في حادث مأساوي، واجهة

المقهى، يشاهدها كلّ من يدخل. كان يرتدي ثيابهم الإفريقية المزركشة نفسها، بينما على رأسه طاقيّة من السعف الملوّن في وسطها ريشة ديك.

سألت صاحب المقهى عن ذلك التجمّع المريب، وكان يتنقّل بخفّة بين الموائد، يساعد نادله الوحيد، وثوبه مرفوع حتى مستوى السُرّة.. ردَّ بصوته الأنثوي العجوز:

- يحيون ذكرى الزعيم السنوية.. أين صاحبك إبليس؟

لا أدري لماذا أطلق لقب إبليس على الروائي الذي خلته مرّة ناقة، ولم يخطر على بالي أبدًا أنه يحمل وجه إبليس، ولا كان عندي تصور عن وجه إبليس.. كيف يبدو؟ تغاضيت عن ذلك وسألته مرّة أخرى:

- ولماذا يحيون ذكرى زعيمهم عندك؟.. هل هذا مكان إحياء ذكرى؟

كان صوتي مرتفعًا بعض الشيء في تلك اللحظة، ولا أدري لماذا كان مرتفعًا. أوشكت أن أسبّه وأسب قبيلته التي لا أعرفها، وأرى وجهه غارقًا في الكحل، وثوبه حتى سرّته، وخاتمه يلمع باستفزاز، ولم يبد لي ضحية أبدًا كما تصور (أ. ت)، ولكنْ مضحيًا عنيدًا يواصل التضحية حتى النهاية.

- أنا موحّد القلوب يا خشبي.. أنا موحّد الفتن.. تعال غدًا وستجد عندي مائدة لك ولصاحبك إبليس.. اليوم طبختي جنوبية.

ضحك وكانت ضحكة ثعبان. واليد التي مدّها بغتة، ولمس بها ساقي الخشبية، كانت بها بقايا حناء.

حين خرجت إلى الطريق، كان الجو غائمًا وفيه رائحة مطر بعيد وعدة عربات من ماركة اللاندكروزر بلوحات مميزة ومظللة الزجاج بالكامل، تقف على مقربة من المكان. إنهم زملائي القدامى بلا شك،

يراقبون ذكرى الزعيم عن قرب، ولن يسمحوا لها أن تتحول إلى أكثر من ذكرى.

وصلت قصر الجميز وقد تعبت ساقي البذيئة والسليمة معًا، وكنت أتوقّف عدة مرّات أتحسّسهما قبل أن أواصل السير من جديد.. في جيبي بدايتي عن المدلِّك كاملة، أتشوّق أن أريها للروائي (أ. ت) وأسمع رأيه الذي غالبًا سيكون مشجعًا وفي صالحي، لكنْ لم يكن موجودًا هنا أيضًا. على طاولته كانت تجلس (س)، أو النسخة الجديدة من (س)، بعد أن صدرت روايتها (لحظة حب) أو يرقة حب كما أسميها، حولها وجوه جديدة لم أرها من قبل باستثناء الشاب ذي الشعر المنكوش الذي شاهدته برفقتها في مسرح الشباب الأهلي، بينما الوجوه التي كنت أراها دائمًا، توجد على طاولة أخرى.. كانت (س) تجري حوارًا كما يبدو، لأن ذا الشعر المنكوش كان يكتب على دفتره.

قطعت حوارها حين شاهدتني أتجرجر في مدخل المقهى، نادتني بصوت بدا لي جديدًا أيضًا وفيه رنّة خبث:

- تعال يا عبدالله.. هل أكملت (لحظة حب)؟.. رأيك مهم عندي.

لم تقل يا فرفار، وتسأل عن رأيي المهم، ولم أقرأ روايتها، ولن أقرأها أبدًا، أخاف أن تفسد كتابتي وأجد نفسي أكتب عبارة مثل "كُفّ عن تدليك مشاعري أيها المدلِّك زوج العمّة.. مشاعري مثل ساقي الخشبية لا تستجيب للتدليك". ضحكت في سري وانا أستعيد عبارتي التي لا تعني شيئًا، تمامًا مثل يرقتها التي لا تعني شيئًا أيضًا. سأجاملها.. لا بأس، وأعرف تمامًا أنها لا تحفل بي أو برأيي، ولكنْ تغتاظ مني بشدّة لأنني اقتربت من نجمها القديم في الأيام الأخيرة أكثر منها، وكانت فيما مضى تجلس قريبة من ضلوعه.

- في الحقـــيقة لم أقرأها كاملة حتى الآن.. لكنَّ بدايتها مشجعة.. أنا مشغول بكتابة رواية.

- صحيح يا عبدالله؟.. مبروك.. ألف مبروك.

ضـــجّت فجأة بفرح مصطنع، وأعرف أنه فرح لا دخل لكتابتي فيه، ولكنْ ليرقة الحب بلا شك.. كانت تقلّبها بين يديها كتحفة ثمينة وهي تخاطبني.

- ما موضوع روايتك يا صديق؟.. لا تقل لي قصة حب أيضًا؟

تـــسخر مني بلا شك، وأنا الذي أرعبتها بساق الخشب وبيّنت أمامها في أول يوم رأيتها فيه أنني صاحب محاولات، وعرفت بعد فترة مـــن مخالطتي لتلك النماذج، أنّ صاحب المحاولات في نظرهم لا يعدو كـــونه مـــتطفلاً بلا نتاج يأتي ليغازل إحداهن أو يشرب القهوة على حساب أحدهم ويذهب. حسنًا يا صاحبة سروال الجينـــز باهت اللون التي احتشمت مؤقتًا من أجل الإعلام حين كانت توقع كتابها، سترين قريبًا جدًّا رواية لا تقل أبدًا عن روايات (أ. ت)، ستتعرفين إلى المدلّك الـــذي أخافـــك هتافه في ذلك اليوم، وفررت من المسرح مستندة إلى ســـاعد رفيقك الصحفي ذي الشعر المنكوش. تتعرفين إليه مكتوبًا بخيال لا تستطيعين أبدًا محاكاته.. لم أرد على سؤالها.. وسألت عن الروائي (أ. ت). لم تكن تعرف مكانه، وقال لي أحد الجالسين على الطاولـــة الأخـــرى التي تضم أصدقاء الكاتب حين سمع سؤالي، إن الأســـتاذ في إجـــازة من المقاهي والأصدقاء، مشغول بكتابة رواية جديدة قال إنه استوحاها من شخصية مذهلة لا تتكرر كثيرًا وأجّل روايـــة لاعـــب كرة القدم التي كان يخطط لها. لقد رأيته مصادفة بـــالأمس في إحدى المكتبات، كان يشتري ورقًا وأقلامًا وقال لي: أخبر الأصدقاء عن غيابـــي.

شعرت بإحباط حقيقي، واستغربت أن يختفي من دون أن يخبرني وأظن نفسي صديقه المقرب، وتلميذه الذي يستمع إلى نصائحه، ويتبع آراءه، وطقوســـه، وبحوزتي بداية نابعة من لقاءاتي معه وعن شخصية أخـــبرته عنها مرارًا حتى عرف تفاصيلها، وشاهدها معي طازجة على المـــسرح. تملّكتني رعدة عنيفة فجأة وأحسست أنني أترنح. لقد سرق الروائـــي شخـــصية المـــدلِّك مني بلا شك.. آخ لقد سرقها.. سرقها واختفـــى ليكتبها.. لا بدَّ أنه يجلس الآن عاريًا في غرفة ليس فيها ذرّة هـــواء ليكـــتب.. لا بـــدَّ أنه يتشرد في حارات وأزقة لا أعرفها.. في سجن.. في ميادين رياضية.. في بيت أمونة الإثيوبية.. ويمكن أن يكون قد ركب حافلة قذرة، سافر بها إلى مدينة سنكة في الشرق ليعيش أيامًا فقـــيرة تذكّره بطفولة المدلِّك.. لقد كنت غشيمًا حين أخبرته، وأرى مـــشروعي الذي تعبت فيه كلَّ تلك الأيام، يوشك أن يضيع. من يقرأ روايـــة كتـــبها عبدالله فرفار وعن شخصية كتبها (أ. ت)؟ سيقولون: تقليد مضحك.. سيقولون سرقة.. سيقولون لعب أطفال.. سيقولون. كـــان رأسي يطنّ.. أذناي تطنّان.. وساقي البذيئة لا أحس بوجودها، وأسمع من يقول: نقص في السكر.. من يقول: ارتفاع في ضغط الدم.. زيـــادة في حرارة المعدة.. اطلبوا سيارة إسعاف، وأشاهد شبح الروائية (س).. يتحدث مضطربًا في هاتف محمول.

في المستـــشفى أخبرني الأطباء بعد أن استيقظت، أنني بلا مرض حقيقـــي. فحـــصوا دمي ووظائفي الحيوية من القلب حتى الكلى و لم يعثـــروا على شيء. انهيار عصبـــي بسيط ستزول أعراضه بالتدريج يا عبدالله، وتعود لممارسة نشاطك المعتاد.. تعرّضت إلى صدمة بلا شك.

كـــنت أثـــناء إغماءتي التي لم تكن عميقة، أحلم، وحلمت بأنّني أطفـــو علـــى موجة عاتية في بحر بنفسجي، وبيدي كتاب اسمه (أربع

ميداليات ومدلّك) رسمت على غلافه صورة زعيم جنوبـــي على رأسه ريـــشة ديك ملوّنة، ويظهر فجأة من آخر البحر شخص بوجه من نار وأذنين من خشب، يخبرني بأنه الروائي إبليس، يحاول أن ينتزع الكتاب من يدي وأحاول منعه، ونغرق معًا في البحر البنفسجي.

جاءت الروائية (س) برفقة الصحفي ذي الشعر المنكوش وآخرين، لتتأكد من أنني حي، وتحضر لي نسخة أخرى من يرقة حب لأتسلى بها أثـــناء رقدتي. جاء الكثيرون من رواد قصر الجميز نوعًا من الفضول، وفوجئت بوجود العمة (ث) وزوجها المدلّك بجواري ولا أعرف كيف عرفا خبر سقطتي الكبيرة وكانت بعيدة جدًّا عن بيتهما. لكنَّ المفاجأة الحقيقية كانت حين رأيت صاحب مقهى البئر يدخل إلى الغرفة وبيده ســلة فــواكه. كان يصرخ: سلامات يا خشبـــي.. شدّة وتزول يا خشبـــي.

(أربع ميداليات ومدلّك).. خبطت على رأسي من الغيظ، اسم جاء في الغيبوبة وعلق بذاكرتي حتى بعد أن ذهبت الغيبوبة، يا له من اســم ولكنْ بعد فوات الأوان وبعد أن ضاعت الشخصية المحورية في روايـــتي. وبرغم ذلك أحسست بشيء من الغبطة. لقد تطورت بلا شك، ومن اسم المسرحي الفاشل إلى أربع ميداليات ومدلّك، لم تكن المـــسافة كبيرة. أحسست أنني اكتسبت ثقافة، وكان أكبر دليل على تطـــوري أنني قرّرت أن استمر في الكتابة، أكتب بطريقتي حتى لو لم أنشر روايتي، ونشر (أ. ت) روايته. كان بمقدوري أن أسخّر عددًا من زملائي القدامى للبحث عن (أ. ت) في كلّ شبر يمكن أن يوجد فيه، وأخذه إلى حيث يبرك على يديه وركبتيه مستجديًا سيجارة، وكانوا ســيفعلون.. لا.. لا.. كاتـــب اليرقـــات الآن بعيد تمامًا عن كاتب التقارير القديم.

تذكّرت فجأة شخصية أخرى لم أحكها كاملة للروائي (أ. ت)، لم أحكهـا لأنني لم أدرسها جيدًا كما درست شخصية المدلِّك، هذه الشخـصية ستفيدني بلا شك، سأعمل عليها في سرِّية تامة، جنبًا إلى جـنب مـع شخصية المدلِّك، وأرى ما تقدمه.. هنا قررت أن أزور المـشجِّع حفار القبور في القصر الأبيض، وبمجرّد أن أقف على ساقي الخشبية مرّة أخرى.

بحـثت عن هاتفي المحمول، وعثرت عليه بعد عدّة استفسارات، موجودًا في خزانة الأمانات الخاصة بالمستشفى. ضغطت على رقم (أ. ت)، واستمعت:

"هـذا المـشترك لا يمكن الوصول إليه الآن.. حاول فيما بعد.. وشكرًا".

- 16 -

أمـــام بـــاب القصر الأبيض، أكبر مستشفى للأمراض العقلية في العاصـــمة، أخبرني البواب الذي تدل ثيابه وملامحه الوعرة أنه من أبناء الشمال، بعد أن ألقى بنظرة عميقة على ساقي الخشبية، بأن الزيارة غير مـــسموح بها في هذا الوقت وعلي أن أعود في العصر إن كنت أنوي الدخـــول. لم أجادله، وبحثت في جيوبـــي عن بطاقتي الأمنية القديمة، كانت ما تزال صالحة، ولا كانت عهدة تستردّها الإدارة كما استردّت السلاح وأجهزة اللاسلكي. في الحقيقة لم أكن أتعمَّد حمل تلك البطاقة بعـــد أن تـــركت الخدمة وطرقت باب الكتابة، لكنَّها كانت تقفز إلى جيبوبـــــي بحكم العادة كلّما غيّرت ملابسي. عثرت عليها في مكانها المعـــتاد في جيب القميص، ومرَّرتها أمام عيني البواب الذي ارتعد ورفع يـــده بتحية عسكرية مضحكة، لم يفتح بوابة الدخول فقط، لكنَّه ترك موقـــع حراســـته، ورافقـــني حـــتى المبنى الداخلي، وهو يردّد "تفضّل جنابك.. حاضر جنابك".

في عنـــبر اسمه (عنبر سليمان)، على اسم أحد مؤسسي المستشفى الـــراحلين، وكـــان يوضع بداخله المرضى الأشد خطورة، عثرت على المـــشجّع حفّـــار القبور (ع. د)، وشعرت بالحزن، ولم أستغرب من شعوري بالحزن. هذا جزء من تطوّري الجديد بلا شك، كاتب اليرقات الـــذي بدأ يبتعد قليلاً عن كاتب التقارير. كان تائها بشدَّة، يحدِّق في الـــسقف المقشَّر الطلاء وتسقط منه ذرَّات على سريره. ملابسه ليست

خضراء صوفية كما كانت في الماضي، ولكنْ من قماش أبيض خفيف كان يبين جسده الذي هزل بصورة واضحة. كان جسد غلام عجوز. بجانبه على السرير تجلس امرأة على وجهها آثار غم، خمّنت أنها زوجته، وأعــرف أنــه متزوّج، ولديه عيال. وكانت قصاصات الصحف التي تحمــل صوره في حفل التكريم، منشورة على طاولة بجانبه وقد ابتلّت حــواف بعضها بالماء. نهضت المرأة حين شاهدتني أتجرجر بجانبها، ولم تحفــل مــن ساقي البذيئة، فقد كانت في مكان أشد بؤسًا من ساق خشبية.. خاطبتني وهي تتجّه بنظراتها بعيدًا:

- هل تعرف زوجي؟.. لم أرك من قبل.

كانــت تــسألني، والنساء في بلادنا يعرفن من يعرف أزواجهن. الــصديق خارج البيت، هو نفسه الصديق داخل البيت، تعرفه الزوجة ويعرفه الأبناء.

- عملنا معًا في سن الشباب في مصنع للصلصة، وحين كبرنا شجعنا الفرق الرياضية معًا، هو شجع (اللبلاب) وأنا شجعت (المارد).

كان كلامًا نصفه مختلق، الحقيقة فيه أن المشجع حفار القبور عمل في شــبابه حمّالاً في مصنع للصلصة، لا أعرف حتى مكانه وإن كان ما زال مفتوحًا أم أغلق، وحصلت على تلك المعلومة بعد يوم من التقصي، وفــريق المارد الذي ادّعيت بأنني أشجعه، كان في الواقع ذلك الفريق الــذي يعمــل فيه المدلّك زوج العمّة. وليست لي أي علاقة بالفرق الرياضية سوى أن بعض مبارياتها تقام بالقرب من بيتي.

- انظر إلى حالته.. ساعده أرجوك.

كانت تبكي وأحسّ أنني امتلأت بالعواطف، ولو كتبت المشجّع حفّــار القــبور سأكتبه بنفحة إنسانية حزينة. في رقدته الذاهلة تلك، محاطًــا بصور التكريم التي أفقدته عقله وتوشك أن تفقده حياته، كان

موحـــيًا. إيحـــاء المأساة واضح جدًّا.. واضح في المكان وفي ذهني، أي طقـــس مـــن طقوس الروائي الخائن، سارق شخصية المدلِّك يمكن أن يصلح لكتابة المأساة يا ترى؟.. طقس الأناقة في بهو فندق راق مرتديًا بذلتي المعدَّلة بمقص الخياط (خ. ر)؟.. طقس العري في غرفة بلا نسمة من هواء؟ طقس التشرُّد في الشوارع والحفر؟.. لم يقل الروائي أبدًا أنه كتب يومًا في مستشفى دخله مريضًا بأعراض كاذبة ولا في مقابر حفر فـــيها قـــبرًا ورقد فيه يكتب.. قد أستطيع فعل ذلك، ويكون طقسي لكـــتابة المشجع حفار القبور، الهزيل شبه الميت في عنبر سليمان.. ترى من يحفر قبره إذا مات؟

كانـــت الزوجة تنتشلني من أفكاري المتلاحقة. ترد على أفكاري وتخبرني أن أصدقاء زوجها عثروا على قبر محفور في مقابر عمران حيث كـــان يعمل، وعليه شاهدان كتب عليهما اسمه وتاريخ ميلاده، وترك تاريخ الموت حتى يحدث. هو من حفر قبره إذن، ولعلّه آخر قبر حفره، قـــبل أن يضيع. اليوم سأكتب سيرة المشجّع، اليوم سأكتبها، ناسيًا ما حـــدث مـــن صـــدمة وانهيار، وعندما يعود الروائي (أ. ت)، مغتبطًا وحاملاً روايته الجديدة المسروقة، سيجد عندي رواية أخرى لن يعرف أحـــد عـــنها شيئًا. كنت أخرج هاتفي أمام المرأة بلا وعي، أرن على الـــرقم الذي بات شاغلي كلّما انقطعت عن التفكير في الكتابة وأسمع الرد الآلي نفسه:

"هذا المشترك غير موجود في الوقت الحالي.. ".

وضعت أمام المرأة بضعة جنيهات أخرجتها من محفظتي، وخرجت مـــن القصر الأبيض، بلا أي وعد أقدمه لها في شأن مساعدة زوجها. كـــان المكان بعيدًا عن وسط العاصمة، في ضاحية محاطة بخلاء جاف، وعثـــرت علـــى عربة للأجرة بصعوبة شديدة. كان السائقون مكّارين

يقـــيِّمون من يشير إليهم بهندامه كما يبدو، وكانوا بلا شك يقيمونني بـــساقي البذيـــئة ولا يتوقّفون. والسائق الذي توقف أخيرًا لم يكن في الحقيقة سائق عربة للأجرة كما قد يعتقد الركّاب، ولكنَّه أحد زملائي القدامـــى. وكان شابًا من الذين شاركت في تدريبهم وإلغاء مشاعرهم في الـــسنوات الأخيرة، وقال لي وهو يقلُّني إلى قصر الجميز كما طلبت منه، إن لدي ملفًّا قد انفتح في الإدارة مؤخرًا، وهو الذي فتحه بنفسه، لـــيس بـــصفتي القديمة عبدالله حرفش، تمهيدًا لإعادتي للخدمة، ولكنْ بصفتي الجديدة، مثقف مشبوه يجب أن يتابع بدقة. قال: خذ حذرك يا عم فرفار.. أخبرتك بدافع العشرة.. بدافع العيش والملح.

كدت أضحك وأنا أتخَيَّل نفسي مشبوهًا تتابعه الأجهزة الأمنية، وقـــد قـــضيت عمري كلَّه وراء المشبوهين حتى حدث حادث المزرعة المباغت، وكان أكثر ما أضحكني هو أنني لم أقدم إنتاجًا يمكن متابعته، حتى الآن.

في قـــصر الجميـــز لم يكن ثمة أحد من الجوقة في وقت عادة ما يـــوجدون فـــيه، وأخـــبرتني إحدى النادلات الإثيوبيات بلغتها المغرية المتكسرة، أنهم تجمَّعوا هنا مبكرًا، وغادروا إلى الحفل. لم أكن أدري أي حفل تعني، حفل توقيع؟ ولكنْ لا أعرف كتابًا صدر لواحد منهم ليقام له حفل، وقد أقامت (س) حفل توقيعها في قاعة رشا وانتهى. جلست على طاولتي منفردًا، طلبت قهوة مرّة، وأخذت أراقب ضجيج المقهى. كان ثمة رجل يرتدي الثوب والعمامة ويتلفَّت في قلق، وعرفت بسهولة أنـــه من الزملاء لكنْ بلا خبرة. كان من دون شك يراقب شخصًا في المقهـــى وربما أكون أنا ذلك الشخص، وسيدتين أجنبيتين، لعلهما من أوروبا أو أمريكا، ترتديان كثيرًا من الإكسسوارات المحلية المصنوعة من الخـــرز وسن الفيل، وتحاولان أن تتحدثا بالعربية، وتطلبان من النادلة

إحـــضار بخور (القرض)، المعروف في ثقافتنا بطرد العين والحسد، ولم يكن ضمن بخورات قصر الجميز. كنت أفكر في المدلِّك وحفار القبور معًا: واحد يضجّ حياة والآخر يخطو إلى الموت. لماذا لا أكتبهما معًا؟.. لمـــاذا لا أمزجهما في نص معقد يخاف منه (أ. ت) حينما يعود، يلغي نـــصه المـــسروق مـــني ويقبِّل رأسي ويعيد لي شخصية المدلِّك معززة مكرمة. ابتسمت في سري. بدأ خيالي يتسع بلا شك.. يتسع أكثر من اللازم.

- 17 -

في طريقـــي شاقًّا مقبرة عمران، حيث كان يعمل المشجّع حفّار القبور في السابق، ويرقد الآن في قبر حفره بنفسه قبل أن يضيع، توقّفت عـــدّة مـــرّات أمسح العرق عن وجهي، وأكتب عدّة ملاحظات أوليّة تخطر ببالي عن روايتي، على الورق الأصفر الذي أحمله في جيبـــي ولا يفارق ذلك الجيب. كانت المقبرة عتيقة وبعيدة عن بيتي ووصلت إليها بعـــربة ركشة مستأجرة، طلبت من سائقها أن ينتظرني حتى أعود ولم أكن واثقًا أنه سيفعل. وقد لفتت نظري تلك البنايات المتعددة الحديثة التي أنشئت بقرب المقبرة، ولم أزرها منذ دفنت أمي قبل أكثر من خمسة عـــشر عامًا، وكان أكثر تلك البنايات لفتًا للنظر، مبنى أبيض بطابقين علـــى مساحة كبيرة من الأرض، كنت أرى عبر سوره المنخفض ومن بـــين فـــراغات الأشجار الخضراء التي تحيط بالسور، عددًا كبيرًا من الأطفال يلعبون الكرة أو يتسابقون في بهجة، أو يتأرجحون في أراجيح من الحبال منتشرة في المكان، ونساء بثياب بيضاء يتبعثرن وسطهم، وقد اخـــتلط صراخهن بصراخ الأطفال. لم تكن ثمّة لافتة على الباب الكبير المطل مباشرة على المقبرة. واستطعت بقليل من التخمين أن أعرف، أنه مبنى رعاية اللقطاء الذي أنشئ مؤخّرًا بمساعدة بعض المحسنين من داخل الـــبلاد وخارجها، وتوضع فيه ثمار الخطيئة، أولئك الذين يعثر عليهم رضَّعًا في الشوارع ومكبّات الزبالة وأسطح البيوت المهجورة، وقد تخلّى عـــنهم أهلهم الخاطئون. لم تكن إدارتنا معنية بتلك المسائل التي كانت

اجتماعية ولا علاقة لها بالأمن، ولا كان ثمة سبب يأتي بـــي إلى هنا، لـــولا موت (ع. د)، في عنبر سليمان بالقصر الأبيض. شخصيّتي التي كتبت جزءاً كبيرًا من سيرتها المتخيلة، ومزجتها بسيرة متخيلة للمدلك زوج العمة، وأنتظر بها الروائي الخائن حتى يعود وأصدمه حين يقرأ ما كتـــبت. لم أكن أحمل له ضغينة ولا كرهًا وأعتقد أن خيانته هي التي حفزتني، وجعلتني منكبًّا على الورق عدة ليال.

كانت قد مضت خمسة عشر يومًا على اختفاء الروائي، ولم أكف عـــن الضغط على رقمه في هاتفي ولا أقطع الاتصال إلا بعد أن تنتهي الرســـالة الآلية المملة: حاول مرّة أخرى، وأحاول مرّات ومرّات. وقد ذهـــبت إلى بيته في أحد الأيام، طرقت الباب بعنف يشبه عنفي القديم حـــين كـــنت أطارد خائنًا واقتنصه في أحد الجحور. وكان الباب قد انفتح لدهشتي ولكنْ لم يكن الروائي من فتح، كان شخصًا آخر أصغر ســـنًّا، يحمل بعضًا من ملامح الروائي، عرفت أنّه أخوه الذي يقيم في مدينة إقليمية في غرب البلاد، ويأتي إلى العاصمة من حين لآخر لزيارته، وكـــان يملك مفتاحًا للبيت يستخدمه متى ما جاء. لم يكن يعرف شيئًا عن اختفاء أخيه، لكنّه لم يفزع، قال: أكيد أنه يكتب في مكان ما.. لا مشكلة. طبعًا لا مشكلة بالنسبة إليه، ولكنَّ مشكلة كبرى بالنسبة إلي.

خـــلال تلك الأيام الخمسة عشر، ذهبت عدة مرّات إلى قصر الجميـــز، اختلطت بالروائية (س) وجوقتها الجديدة التي تكوّنت بعد أن نشرت كتابها، وأخبرتها بعد إلحاح شديد منها عن موضوع تلك الرواية التي أكتبها، أنها عن كوكب المريخ الذي تخيلت أن فيه حياة وكائـــنات مهددة بالموت بسبب الفيضانات والأعاصير، ونسجت روايتي.

- لم أكن أعرف أنك واسع الخيال هكذا.

كانـــت تقول، ولا ترفع يدها لتعيد غطاء الرأس الحريري الذي سقط كاشفًا عن شعرمشقّر بلا ذوق، ولا كانت تشبه الشقراوات في شـــيء، وواحـــد من جلسائها يقرأ مقطعًا من (لحظة حب)، بصوت خافت، ثم يصيح: يا الله.. أنت حقًا مبدعة. الفتاة المندفعة وطئت خلية النحل بثقلها كلّه، وقطعًا تضخم ملفُّها في إدارتنا.

أيـــضًا ذهبت مرّة إلى مقهى البئر، وكلّي أمل أن يكون (أ. ت) جالـــسًا هـــناك، وتكـــون شخصيته المذهلة التي يكتبها، هي الضحية صـــاحب المقهى، خاصة أنه كتب مثلها في رواية (أبناء سعد المحتالين) ورواية أخرى لم أقرأها بعد بالرغم من أنني اشتريتها من مكتبة أعلاف ضـــمن الكـــتب التي شكلّت نواة مكتبتي، لكنْ أيضًا لم يكن هناك، مـــددت رأســـي من الباب وسحبته بسرعة، وأسمع الصوت الأنثوي لصاحب المقهى يناديني:

تعـــال يـــا خشبـــي.. هل تحسنت صحتك وخرجت؟ تعال.. طبختي اليوم من كلِّ الأصناف.

وكان محقًا لأنني شاهدت حين مددت رأسي عشرات السحنات المختلفة لعشرات القبائل والأعراق. هممت أن أعود وأسأله إن كان قد رأى إبليس في الأيام الماضية.. لكنَّ صوته كان يردد..

أين إبليس يا خشبـــي؟.. هل مات في النار؟

وازداد استغرابًا.. لماذا إبليس؟

كان إعلان شركة (ناني) للمشروبات الغازية التي أنشئت حديثًا، قـــد أنجز بسرعة استغربتها، وشاهدته مضطرًّا حين عرض على شاشة التلفزيون المحلّي لأول مرّة، وجدت المدلِّك يطرق بابـــي برفقة العمة، ويـــدخلان بـــلا كلام يحملان صندوقًا من مشروب ناني يضعانه على الطاولة، حيث يتجه المدلِّك مباشرة إلى تلفزيوني المغبر الذي نسيت أمره

مـــنذ مدة، وركنته في غرفتي الداخلية بجانب عدد من الأشياء المهملة، ينفـــضه جـــيدًا، يعود به إلى الصالة الخارجية، ويوصله بالكهرباء، ثم يفتحه على القناة المحلية ويشعل سيجارة.

"إشربوا ناني وعودوا شبابًا.. إشربوا ناني وتذوقوا طعم الحياة".

ويظهر المدلِّك في الإعلان، عجوزًا يتوكّأ على عصا بنيِّة، ويمسك بالقنيـــنة التي لونها أحمر، يتجرَّعها ببطء ويتنفس بعمق، ثم لقطة أخرى يظهـــر فـــيها مصبوغ الشعر.. نافخًا صدره، يرتدي ملابس شبابية، ويقـــف على ناصية شارع مزدحم، يغازل فتيات المدارس ويبتسمن في وجهه.

- تعرف يا فرفار.. هذه الدعايات فيها الكثير من الصدق.. أنا أحس بفـــورة الـــشباب قد عادت منذ أن بدأت أشرب (ناني) بشكل منتظم.. اسأل العمة إن كنت لا تصدق.. خذ.. جرِّب.

ويمدّ لي يده بقنينة منه بعد أن فتحها بأسنانه وسالت قطرات منها على ثيابه. أشربها صاغرًا، ولا أحس سوى بطعم نعناع مخمّر، يصيبني بالغثـــيان. وألمـــح العمّة تغطي وجهها بطرف ثوبها خجلة، بينما حنَّاء كثـــيفة تـــبدو على يديها وقدميها. آخ يا مدلِّك.. آخ يا زوج العمّة الغني، لماذا سرقت مني بهذه الطريقة؟

- هل منحوك مبلغًا جيدًا على هذا الإعلان؟

أسأله وأتوقع أنه بلا مقابل، ولم يكن إعلانًا جاذبًا في نظري وقد تعـــوّد الناس وجوهًا ذات طعم، تظهر في الدعايات، وتغري بالشراء، لكـــنَّ المدلِّك يفاجئني، يمد يده إلى حقيبة يد نسائية كانت معلّقة على كتف العمّة، ولم أرها تحمل حقيبة نسائية من قبل، يفتحها ويخرج منها تذكرتين من تذاكر الطيران، عليهما شعار طيران الإمارات، يلوِّح بهما في وجهي:

- لا تنس أن تكتب هذا في قصتك.

عثـــرت على قبر المشجِّع أخيرًا وجلست بجانبه أقرأ الفاتحة على روحه. كان في وسط قبور أخرى، قرأت أسماء شاغليها وبدت لي أسماءً مألـــوفة كأني سمعتها من قبل، ربما كانت لسياسيين معروفين رعوا في البلاد من قبل، أو مغنين ملأوا الدنيا ضجيجًا وذهبوا، أو لاعبـــي كرة مـــن ذلـــك المجتمع الذي عاش فيه المشجِّع حفار القبور طويلاً وأحبّه ومـــات من أجله. أخرجت واحدة من أوراقي الصفراء من جيبـــي.. كـــنت أكتب ملاحظاتي ووجدتها بعد أن قرأتها عدة مرّات بعد ذلك، سطورًا لا بأس بها، وسأدخلها في الرواية. كتبت:

"حـــين نظـــرت إلى قبره في تلك الساعة والشمس تبدو متعجّلة للمغيب لتفسح مكانها لليل، لم يبد لي أنني أنظر إلى حفرة قاحلة تضم جسدًا بلا روح، ولكنْ غرفة معطرة، ومضمّخة بالبخور، تضم عريسًا يزف في ذلك اليوم إلى عروسه. تذكّرت صوته الضخم حين كان يملأُ المـــيادين ضـــجيجًا، يديه القويتين حين تدقّان الأرض، فيهرب التراب مذعورًا".

ســـطور فـــيها خيال يا (أ. ت).. أليس كذلك؟، ستجنّ حين تسمعها، وتسمع غيرها الكثير.

- 18 -

في أحـــد الأيام، وكنت في طقس العري لا أرتدي سوى سروالي الداخلـــي، جالسًا في غرفتي مسدلة الستائر، وبلا ذرَّة من هواء، أكتب على ورقي الأصفر، أضيف وأعدّل، سمعت هاتفي المحمول يرنّ وكنت قـــد نسيت إغلاقه. وفي العادة أغلقه حين أكتب، أيضًا أنـــزع الساق البذيئة عن جسدي، أبعدها عني أطول مسافة، كيما أحس بالعجز ولا أتحرك حتى لو شعرت بالملل.

كانت قد مضت أكثر من ثلاثة أسابيع على اختفاء الروائي (أ. ت)، وذهـــبت إلى بيـــته مرّة أخرى، ليفتح لي أخوه مرتديًا ملابس داخلية مبتلة ويلفّ رأسه بمنشفة وردية باهتة، وأشاهد من فتحة الباب الـــتي حاول أن يسدَّها بجسده، شبح امرأة شبه عار يتحرك في صالة البـــيت، لكنَّ الروائي لم يكن قد ظهر بعد. وكان المدلِّك والعمّة قد ســـافرا إلى دبـــــي مـــرّة أخـــرى، قضيا ثلاثة أيام في فندق (غلوم إخلاصـــي) الذي أعجب المدلِّك، وحدث مشرفي الرحلة من شركة (نـــاني) للمشروبات الغازية عنه، ومن ثم حجزوا لهما غرفة فيه. عادا وزاراني في بـــيتي وســـلّماني هديتي التي كانت هذه المرّة أرفع شأنًا، كانت ساعة من ماركة اسمها (باتي) لم أسمع عنها قطّ من قبل، كانت ذات ميـــنا ســـوداء وبلا عقربين، واضطررت أن ألبسها أمام المدلِّك الذي نـــزع عن يدي ساعتي (الوست اند) القديمة ذات المينا الخضراء الباهتة، وهو يصرخ:

- هـــل تسمّي هذه التي تلبسها ساعة يا فرفار؟.. ألقِ هذه الخردة في الزبالة.

وكان أن طوّح بها بقوة، لتتكسر على حائط الصالة الأسمنتي، وأفقد في لحظة تهور منه، واحدًا من تذكاراتي التي أحترمها بشدة.. ســاعة قضت معي نصف العمر وكان يمكن أن تقضي معي العمر كلّه لو لم تتحطم. صرخت في وجهه، وكانت المرّة الثانية أو الثالثة التي أصرخ فيها، بوجهه، لكنّه لم يعبأ، كان يتحدث عن دبـــي بلا توقّف: تخيّل يا فرفار أنهم برّدوا الصيف بالتكنولوجيا، جلبوا الجليد مـــن أقـــصى الأرض، تخيّل أنهم يسكنون الجنّة.. هل تعرف ما هي الجـــنّة؟.. لا تحـــزن.. في الـــرحلة القادمة سأدبّر لك تذكرة مجانية وحجرة في فندق غلوم.. صديقي غلوم الطيب.. هل تعرف أنه كان متسولاً في الشوارع حين قدم من بلاده، وتحول بذكائه إلى صاحب فندق؟.. هو من أخبرني بنفسه.. صحيح أن فندقه لم يدخل تصنيف الـــنجوم، لكـــنّه أرقـــى من الهيلتون.. والله العظيم أرقى.. إسأل عمـــتك إن كنت لا تصدق. إسألها عن الملاءات والستائر والحمام الإفرنجي.

وأتوقـــف عـــن الصراخ، لقد هزمني، حفزّني على الاستمرار في كـــتابة الغرابة التي أتوقع ألا تكون يرقة هذه المرّة.. لكنْ أين من كان يستمع إلى اليرقات ويقيّمها؟

الـــتقطت هاتفي بعد أن رن كثيرًا، ست أو سبع رنّات بموسيقى أغنـــية (حياتي) القديمة التي كانت أغنيتي المفضّلة، وارتعدت قليلاً حين شاهدت رقم مسؤولي السابق، وكان مسجّلاً على الهاتف، لم أمحه كما محوت أرقام كثير من زملائي القدامى حين أقلعوا عن المواصلة، أو الرد على اتصالاتي. في الواقع كنت أخاف كلّما فكّرت في محوه. كان ذلك

جـــزءًا من تدريبـــي المهلك، أن يظل مسؤولك هو مسؤولك حتى لو مات، حتى لو متّ أنت.

ضـــغطت على زرّ الرد وأنا أحاول التماسك، وسمعت المسؤول يخاطبني بصوت حاد:

- لماذا لا ترد على اتصالي مباشرة يا فرفار؟.. تعال إلى مكتبـــي في الإدارة فورًا.. أظنك لم تنس أين توجد؟

أغلقت الهاتف وقد تملكتني الحيرة. شهور طويلة مضت منذ بترت ســـاقي، وتقاعدت، وتطوّرت، وما رأيت المسؤول مرّة أخرى إلا حين قصدته لتخليص (الطائر الذبيح)، تخليص الروائي الخائن من سردابنا الذي قـــضى فـــيه ثلاثة أيام قاحلة جفّفت أفكاره كما قال، ثم ليخبرني أحد الزملاء وهو متنكّر في هيئة سائق عربة للأجرة، أنّ لي ملفًا فُتح مؤخرًا. أنا خائف، حقيقة خائف وأحس الآن بشعور مئات، بل آلاف اقتنصتهم مـــن قـــبل ولا كنت أملك شعورًا.. إعادتي للخدمة مستحيلة وأنا بهذه الـــساق المحزنة. قطعًا سأؤخذ ويريدونني أن آتي بنفسي، أن آخذ نفسي بنفسي.. تلك اللحظة لعنت بائع الورد البنغالي في نيس وامرأته المهاجرة الإفـــريقية الـــتي جعلته يكتب رواية، الإسكافي الفقير من رواندا وحربه المشؤومة، وبائعة الهوى التافهة التي بهرت القراء بروايتيها، وأوشكت أن ألعـــن المـــدلّك زوج العمة وحفّار القبور الميت لأنهما اعترضا طريقي وأوهمـــاني أنهما شخصيتان غنيّتان، والروائي (أ. ت) أيضًا، لأنه جعلني أقـــرأ (علـــى ســـريري ماتت إيفا)، و(أبناء سعد المحتالين)، وكثيرًا من القصص الأخرى، وصادقني حتى حانت لحظة السرقة وسرقني.

ماذا لديك ضد كاتبها؟

ســـؤال المسيحي (ر. م) صاحب مكتب (أعلاف) حين اشتريت إيفـــا، مـــازال يرنّ في أذني.. ليس لدي شيء ضد كاتبها.. أنا خارج

الخدمة، أنا كاتب، صاحب محاولات، لكنَّ الإدارة بالقطع لديها أشياء ضده وضدي وضد الروائية (س)، صاحبة يرقة الحب وسروال الجينز باهت اللون التي احتشمت مؤقتًا يوم وقعت كتابها، وضد كلِّ من يجلس على قصر الجميز وغيره من المقاهي الخائنة التي تمتلئ بالأشقياء وناسجي الدسائس والمؤامرات. أنا في مصيدة بلا شك ولا أعرف إن كانت مصيدة فأر، أم حفرة عميقة بلا قرار.

وصلت إلى مكتب المسؤول في مبنى الإدارة، بعد ساعتين، نصفهما انتظار في الطريق بحثًا عن مواصلة تقلّني، ونصفهما محشور في باص تافه من باصات النقل العام، ليس فيه واحد يملك نخوة ليقوم ويجلسني في مكانه، وقد ارتفع ثوبي عاليًا مظهرًا ساق الخشب.

وجدته جالسًا خلف مكتبه في هدوء واستقبلني بابتسامة هي في الواقع لدغة، تقصيّتها وعرفت أنها لدغة. أمامه نسخة من رواية (لحظة حب) للروائية (س)، وملفّان صغيران، كتب على غلاف أحدهما بخط أسود عريض (س)، وعلى الآخر بنفس الخط.. (ع. ح)، أو (ع. ف)، عرفت أنهما ملف الروائية، وملفّي الذي فتح مؤخرًا.

- إجلس يا فرفار.

وجلست في صمت محاولاً أن أبدو في مثل هدوئه.

- أين بطاقتك العسكرية؟

- في جيبي سيدي.

- هاتها.

أخرجتها من جيب القميص حيث اعتادت أن تقفز إليه بلا وعي مني وأنا أستبدل ملابسي في كلّ مرّة.. لقد أُخذت بلا شك.. مفارقة كبيرة أن يؤخذ من كان يأخذ، أن يرتبك من كان يربك، . أخذ

المسؤول البطاقة من يدي، ألقى عليها نظرة فاحصة وتأكّد من أنها ما تزال صالحة، وأدخلها إلى ملفي ثم واجهني:

- هل تعرف سبب استدعائك يا رقيب عبدالله؟
- لا سيدي.. ليست لدي فكرة.
- هل ترى هذين الملفّين؟

كان يعبث بالملفّين، بينما لدغة الثعبان على شفتيه أكثر وضوحًا، وثلاثة هواتف في مكتبه ترنّ دفعة واحدة، ولا يمد يده إلى أحدها.. ليست لدي فكرة؟.. في الواقع لدي ألف فكرة.

- ملفك الذي سأمزقه الآن، مقابل ملفها الذي أود رؤيته ممتلئًا ويحمله رجلان من شدة ثقله. ملف الطائر الذبيح أيضًا، وملف كلّ من يقترب منها أو منه.. كلّ شيء حتى الشامبو الذي تغسل به شعرها، ونوع طلاء الأظفار الذي تستخدمه، كلّ شيء.. كلّ شيء.. أدخل عواطفها.. إحساسها.

نهضت مضطربًا، وأحسّ بالمغص، والحموضة، وسوء الهضم وأنني لست جائعًا بالرغم من أنني لم آكل منذ عدة ساعات، كان صوتي ضعيفًا وأنا أردّد:

- لست في الخدمة يا سيدي.
- بل أنت في الخدمة.. الخدمة الممتازة، لقد ترقّيت يا فرفار، عدلت رتبتك ودرجتك المالية، و..
- وساقي الخشبيّة يا سيدي؟

أقاطعه بصوت أضعف، وأحس ببوادر الإغماء، تمامًا مثلما حدث لي يوم عرفت بأن الروائي (أ. ت) قد خانني وسرق منّي شخصية المدلّك، لكنَّ المسؤول يستمر، والمسامير المدقوقة في الرأس تستمر.

- إذهــب إلى الــرقيب (ط)، وتسلّم عهدتك، وبطاقتك الجديدة، إذهــب.. ســاقك ممتازة جدًّا خاصة حين تذهب بها إلى المقاهي والندوات، وخيالك أظنه تحسّن أيضًا.

كــنت أخــرج مترنّحًا من مكتبه، وأسمع صوت ورق يتمزق، وثلاثــة هواتف ترنّ دفعة واحدة. ساقي ممتازة لأنني جرجرتها في سكة الخطــر، وخــيالي تــدرّب بفعــل مكتبتي التي ماتت وهي في المهد، ومحاولات الروائي (أ. ت)، للارتقاء بيرقاتي حتى تكتمل.. كنت أقف بترنحــي كاملاً في الطريق، أمسك بكيس ضخم يحوي عدتي، وتقف أمامــي ســيارة الأجرة التي تتبع إدارتنا، والسائق الشاب الذي دربته، يتــرجّل، يحمل الكيس عنّي، يضعه في داخل العربة، ويفتح لي الباب الأمامي حتى أجلس.. كان يردد:

- تحياتي يا عم عبدالله. نهارك سعيد يا سيدي.

- 19 -

بدأت بإفراغ الكتب من مكتبتي الوليدة، وأنا ألهث ويصبّ من جسدي العرق، ولا أتذكر أي رفّ منها كان سيمتلئ برواياتي العديدة التي اعتزمت كتابتها في تلك الفترة التي توهّجت فيها بعنف، أربع ميداليات ومدلك.. تكريم وموت.. سرقة في وضح النهار، سيرة تفاحة.. سجناء في سرداب.. كلّ تلك العناوين الملفتة، الشخصيات الموحية الغنية، المدلّك زوج العمة، حفار القبور مشجع كرة القدم، وصاحب مقهى ضحيةً أو مضحّيًا، يحتاج إلى خيال جامح حتى يكتب في هذه الحالة أو تلك. كانت أمامي عشرات الأوراق التي ملأتها بكتابة مزجت فيها بين الواقع والخيال كما أتصور، وأضفت مفردات من اللغة، تعلمتها بجهد أشهر من السعي المنهك. ليست يرقات بلا شك، وأعرف أنها ليست كذلك والروائي (أ. ت) كان سيعرف، لأنّني قارنتها بصفحات عديدة من الكتب التي أفرغها الآن، ولا أعرف في أي ركن مهمل من بيتي سأركنها. وجدتها تقترب من مستويات تلك الكتب. كان الجهاز اللاسلكي الأسود المصنوع في الصين، يرطن بلا توقف، ويحكي عن فيضان صغير حدث في حي (جابر) الشعبي، وتمت السيطرة على اندفاعات المياه أخيرًا، عن العفريت الذي ظهر في بعض شوارع العاصمة، يوزع المنشورات المضادة للسلطة، وعفاريتنا التي تطارده ببسالة وتوشك أن تقضي عليه. وسمعت صوتًا حادًا يصرخ فجأة:

(ع. ح).. (ع. ف).. أكـــد وجودك حيث أنت ونوع العمل الذي تمارسه الآن. فتوقفت عن إفراغ الكتب وقد ارتبكت، انتصبت في وقفتي وأمسكت بالجهاز، وأنا أردد:

تمام سيدي.. أنا في المستنقع.. أتخلّص من البيض الفاسد.

رد الصوت: عُلم.. شكرًا.

المـــستنقع هـــو بيتي للأسف، وبدا لي في تلك اللحظة مستنقعًا بالفعل، وكانت الكتب هي البيض الفاسد الذي أزيله وأكاد أبكي.

كـــان التلفزيون القديم قد عاد إلى الخدمة اليومية، وكان مفتوحًا على القناة المحلية، ويقفز المدلّك زوج العمّة من سطح منـــزل عال بعد أن شرب زجاجة من مشروب ناني: اقفزوا كلّكم.. باستطاعتكم القفز الآن.. (نـــاني) رمز القوة. كان هذا هو الإعلان الثالث للمدلّك برفقة شـــركة (ناني)، وأتخيل تذكرتين للطيران تبرزان من جيبه، وورقة إقامة خضراء عليها شعار فندق (غلوم إخلاصي)، والعمّة ممسكة بيده وعلى وجهها علامات الهيام كلّها.. نظرة خجلة وابتسامة شفافة. انتهيت من إفراغ المكتبة، جرجرها فارغةً بصعوبة، وحشرها تحت سريري بعد أن فكّكـــتها. حملت الكتب، حشرها بجانبها، وأخرجت ورقة كنت قد وضعتها في صفحة كتاب انهمكت فيه، حتى أعرف أين توقفت، كانت رواية عن الحرب في العراق، ترجمت عن الإنجليزية، أبطالها ثلاثة زنوج مـــن مشاة البحرية الأمريكية، وجدوا أنفسهم فجأة يتمزّقون في حرب لا يعـــرفون جدواها، ويجلسون يوميًا في الليل، يتأمّلون الظلام، يبكون ماضيهم، ويتخيّلون مستقبلاً بائسًا ينتظرهم.

بـــالأمس وبعد أن عدت إلى بيتي برتبتي الجديدة وعتادي الجديد، وعقلي الذي أعيد إلى نقطة الصفر، تملكتني الرغبة في الذهاب إلى قصر الجميـــز، كنت أودّ أن أودّعه بوصفي كاتب يرقات حيّة أوشكت أن

تكـــتمل حشرات، قبل أن أعود إلى الوراء مرّة أخرى، أردت أن أرى الروائية (س)، كاتبة وليست هدفًا، وجلساءها مثقفين محترمين وليسوا مـــشبوهين، والـــنادلات الإثيوبيات المغريات، حين يكسرن اللغة، لن ألاحظ تكسّر لغتهن بعد اليوم، فليست من ضمن الخروقات الأمنية.

كانت الروائية (س) موجودة ومبتهجة وتحتضن نسخة من كتابها. الـــشاب ذو الـــشعر المنكوش والقلم خلف أذنه، موجود أيضًا، وظهر النحـــيل الذي كان دائمًا برفقة كتابين ورأيته يلتقط الصور للروائية في حفـــل توقـــيعها، وكان يحملهما هذه المرّة. رأيت كاتب قصة عجوزًا اختفـــى منذ عدة سنوات، ادعى أنه كان منقطعًا فيها للقراءة والكتابة وتقييم تجربته، وأعرف أنه كان في السجن، وشاعرًا من شعراء الحداثة، يتغزل في واحدة من النادلات الإثيوبيات وسيجارته تحترق.

- لقد عاد صاحبك إلى الظهور.

هـــتفت الروائية (س)، وغطاء رأسها الحريري الأزرق ملقى على الكتفين بإهمال، حالما رأتني أترنح داخلاً.

- من صاحبـــي؟
- الأســـتاذ يـــا أخي.. مالك يا عبدالله؟.. هل تشعر بمرض؟.. لقد أكمل روايته الجديدة ورفض أن يحدثنا عنها.. كان يبحث عنك.

جميل جدًّا.. لقد ظهر الخائن أخيرًا بعد أن عمل ثلاثة أسابيع أنجز فيها كتابه المسروق، ثلاثة أسابيع فترة قصيرة بلا شك، لكنْ لا بدَّ أن حجم الإيحاءات التي منحتها له بسذاجة، ومداخل الشخصية ومخارجها قد شحنته وجعلته يكتب بسرعة خيالية. اختفى يوم المظاهرة من دون أن يودعني، ولا شكّ كانت المظاهرة هي الحافز الأول له ليهرب ويبدأ الكـــتابة فـــورًا.. ماذا يريد مني؟ وهل له عين ينظر بها إلى وجهي؟ لو كـــنت مكانه لما ظهرت أبدًا في مكان عام مرّة أخرى، ولظللت مختفيًا

إلى الأبـــد، أكتب مختفيًا وأنشر مختفيًا وأحاور الصحفيين من دون أن يروني، كيف سيواجهني يا ترى؟.. هل سيحدثني عن روايته الجديدة أم يكتفـــي بالسماع إلى يرقاتي.. وهو يجلس أمامي في مقهى البئر، أذن معـــي وأذن مع الصحراويين أو أبناء الريف المزعجين، وربما مع امرأة زنجـــية أخـــرى تبكي على حبيب متمرد؟. أنا سألتقيه وسأكون باردًا جدًّا. فلم يعد يهمني شيء.. لست كاتبًا بعد اليوم.. أنفّذ الأوامر فقط وكمـــا كنت دائمًا. وحتى ورقي الأصفر لم يعد موحيًا، ولكنْ يتشوق إلى الكتابة القديمة.

- وأين هو الآن؟
- اليوم هو مشغول جدًّا.. لديه عدة مواعيد.. ولكنْ ينتظرك غدًا في مكانكما المعتاد.

لمـــاذا يتـــرك لي رسالة؟.. لماذا لم يهاتفني مباشرة، ويعرف رقم هاتفي جيدًا؟.. هل هو مستح مني؟

وجـــدت نفسي بلا وعي أخرج هاتفي المحمول، أرنّ له وأستمع إلى الرسالة الآلية المملة بعدم وجود المشترك، وتطالبني بالمحاولة لاحقا. وشكرًا.. دائمًا شكرًا.

الوقت يقترب من الظهر، كما هو مبيّن في ساعة (باتي) الجديدة، الـــتي لم أحبّها، وبدت لي أشبه بجسم غريب حول معصمي الذي تعوّد الوست اند المحطّمة. التلفزيون ما يزال مفتوحًا، وقد أعيد إعلان المدلّك وشركة ناني عدة مرّات، وأزداد كرهًا للإعلان وللمدلّك وللمشروب الـــذي كـــان نعناعًا مخمَّرًا يصيب بالغثيان. "وصلت إلى التلفزيون يا فـــرفار.. ". لقد كان فرحًا بوصوله، وأضاف قلادة جديدة إلى صدره كانـــت زجاجة مطاطية من مشروب (ناني)، وأي مجنون عبيط يمكنه الوصـــول.. الجهاز اللاسلكي أيضًا كان مفتوحًا ولا تتوقف رطانته:

عــــصافير الجنّة الصغيرة أكلتها الصقور يا ويلتاه.. أهل البراري تحضّروا وأهــــل الحــــضر ســــكنوا البرية.. اليوم مساء عرس الأبله على صاحبة صالون التجميل، كونوا حذرين.. والصوت الحاد يصرخ:

(ع. ح).. (ع. ف).. هل أزلت البيض كلّه؟

أردّ وأنا أقف منتصبًا:

- تمامًا سيدي.. كلّه.

أغلقت التلفزيون، والجهاز اللاسلكي، لم أحمل أي ورقة من تلك الـــتي كتبتها، وكنت أنتظر بها الروائي لأبهره وأجعله يموت من الخجل والأسف على سرقته. في الواقع مزقت تلك الأوراق بعدِّها بيضًا فاسدًا، تمامًا مثل الكتب. سأذهب إلى لقاء الأستاذ بلا ضغينة، أحاول أن أكون الـــشخص الذي يعرفه، سأقول: إنني لم أكتب وانقطعت للقراءة فقط أثـــناء غـــيابه. لقد أصبح هدفًا ويجب ألا يحسّ بأنّه هدف. وقفت في الطريق أنتظر أي مواصلة ووجدت عربة الأجرة التي تتبع إدارتنا تقف أمامي فجأة والسّائق يخاطبني مبتسمًا:

- هانينا بإزالة البيض الفاسد يا عم عبدالله.. نهارك سعيد.. تفضّل.

- 20 -

كان صاحب مقهى البئر يقف في المدخل، قميصه مرفوع إلى ما فـوق ركبتيه، ويتحدّث بغضب أنثوي صارخ إلى واحدة من بائعات الشاي المنتشرات بكثرة وسط العاصمة، أرادت أن تمارس نشاطها أمام مقهـاه كما يبدو. كانت المرأة تجادله بالصراخ أيضًا وقد بدت أكثر خـشونة منه، وكادت أن تلقيه أرضًا حين دفعته بيديها. وقفت بينهما في اللحظـة المناسـبة مـسندًا صاحب المقهى قبل أن يسقط، ووقف آخـرون تجمّعوا فجأة، وانقادت المرأة لرجائنا أخيرًا، لملمت أغراضها وانصرفت إلى مكان آخر. قال وهو يرفع ثوبه أكثر، ويتنفّض من رماد كان في يد المرأة حين دفعته:

- شـكرًا يـا خـشبـي.. قهـوتك الـيوم على حسابـي أنت وصاحبك.. بالمناسبة إبليس ينتظرك بالداخل.

إبلـيس عـند صاحب المقهى الضحية أو المضحّي، الأستاذ عند جوقـته في قـصر الجميز وعندي سابقًا.. فقد غدا الطائر الذبيح منذ أمس، منذ أن تسلّمت عهدتي وعدت إلى نقطة الصفر.

كـان عـدد من الصحراويين مكوّمين على الأرض في ركن من أركـان المقهى، يشاهدون حلقة من برنامج (نداء البادية)، في تلفزيون كـبير بشاشة من الكريستال، معلّق على السقف، لم يكن موجودًا من قـبل، ولا بـدَّ أضيف حديثًا بناءً على طلب الزبائن. ثلاثة من أبناء الـشمال، يـرتدون القمـصان القصيرة والسراويل البيضاء، منشغلين

بمحاولة ضبط أوتار آلة للطنبور في يد أحدهم، ومتسوِّل رث الثياب يمدّ يده سائلاً عن صدقة، ولا أحد يضع فيها شيئًا، وكان الروائي (أ. ت) يجلس إلى طاولتنا المعتادة، أمامه مغلّف أبيض متوسط الحجم، ومنفضة ممتلئة بأعقاب السجائر. اتّجهت إليه ووقف لمعانقتي في حرارة:

- حرفش -فرفار بعد غيبة.. اشتقت إليك يا رجل.

تصنّعت الحرارة في معانقته، وحاولت بقدر استطاعتي أن أنسى بأنّه هدفٌ علي متابعته. ليست لدي ضغينة تجاهه في موضوع الكتابة بعد أن ألغيت، وسأبارك له الرواية المسروقة، فقط سأعاتبه لأنّه اختفى في يوم المظاهرة، من دون أن يخبرني وأنا صديقه المقرب. جلس وجلست، بدأت بالكلام:

- هل هذا معقول أستاذي؟.. تختفي ولا تخبرني.. وأبحث عنك كالمجنون؟

- لا تغضب يا صديقي.. أبدو شاذّ السلوك حين تأتيني لحظة الكتابة، صدّقني لم أقصد ولكنْ أنا هكذا دائمًا... منذ بدأت أكتب ولا أستطيع أن أتغير.

- لا بأس.. لا بأس.. هل أنجزت روايتك الجديدة؟

قلتها في صوت خافت، وهادئ، ولا أحس بالمغص أبدًا.. لقد أحسست به مرارًا في الأيام السابقة، رقدت به في المستشفى منهارًا، وكانت إعادتي للخدمة التي حدثت أمس، مثل دواء سحري، قضى على كلّ بادرة من بوادر المغص. جاء صاحب المقهى إلى الطاولة يحمل قهوتي بنفسه، وضعها أمامي، وانحنى ليلمس ساقي البذيئة كما اعتاد في كلّ مرّة آتي فيها إلى مقهاه، ولم أمنعه قط، كنت أدعه يفعل ذلك بطيب خاطر.

- طــبعًا أنجــزها وبسرعة غريبة.. ستعجبك جدًّا، في الواقع تهمُّك شخصيًا.. أنت من أوحيت لي بفكرتها.

كـــان يقول ويداه تعبثان بالمغلف الذي أمامه، وأتأكد الآن أنني فعلاً من أوحيت له بها. لقد قالها بنفسه.. شخصية غنيّة قدمتها له على طــبق مـــن الـــذهب، كيف لا يكتبها في ثلاثة أسابيع وكانت كأنها مكـــتوبة. أعرف يا (أ. ت).. أعرف يا أستاذ، وبرغم ذلك لا أحقد عليك.. قلت:

- لم أكـــن أظـــن أنك ستكتب شخصية المدلِّك زوج عمّتي، وقد أخبرتك أنني سأكتبها، وقرأت لك بدايتها التي أخبرتني بأنّها يرقة تحتاج إلى إعادة نظر، هل تذكر؟

- أي مدلِّك وأي عمّة يا فرفار- حرفش؟

كـــان يطالعني باندهاش أقرأه واضحًا في عينيه وقد عدت إلى دقة التقصّي من جديد، حدقتا العينين متّسعتان قليلاً، الرموش ارتفعت كثيرًا عن موضعها، والحاجبان مقوسان، وأحسُّ باندهاش أكثر منه.

- المـــدلِّك زوج عمـــتك، والمـــشجع حفـــار القبور، وغيرهما من الشخصيات الغريبة، لم تعد تستهويني، فقد استهلكتها في روايات سابقة كما تعرف، ودائمًا ما أبحث عن الجديد في كلّ نص أكتبه. لقد ظهرت أنت في حياتي فجأة، وتصادقنا بسرعة غريبة، وكنت في كلّ يوم أجد في شخصيتك دافعًا لكتابتها، أنت شخصية روايتي الجديدة يا فرفار–حرفش.

- أنا؟

شـــعرت بأنّ حلقي قد غدا مرًّا، وقهوة المضحّي- الضحية التي أحـــضرها بنفسه، بلا سكّر، وقد رأيته يضع فيها خمس ملاعق كاملة. شـــعرت بالـــصدمة وبـــأنني ظالم جدًّا، وأنّ دودة خدمتي التي ذكرها

المسيحي صاحب مكتبة أعلاف، لم تمت أبدًا طوال تلك الشهور، ولا أستطيع أن أضيف حرفًا جديدًا:

- أنا؟

- نعـــم أنت.. لقد كتبتك بمتعة كبيرة.. صنعت لك ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً. شيء من الواقع، شيء من الخيال. هل تعرف أين كنت أقـــيم كلّ تلك الفترة؟.. ستستغرب. لقد استأجرت غرفة الحارس في المـــيدان الرياضي قرب بيتك، ودفعت له إيجار غرفة أخرى ينام فـــيها، كـــنت أريد أن أكون قريبًا من موضع الإلهام حتى أكتب جـــيدًا.. ســـتجد نفسك فرفارًا آخر في روايتي، فيه أشياء منك وأشـــياء ليست منك. أشكرك يا فرفار –حرفش.. أشكرك بشدّة وأهدي إليك الرواية رغم أنني لا أكتب إهداءً لأحد.

- ...

- بالمناســـبة.. لا تغضب حين ترى في نهاية الرواية أنني جعلتك تعود مرّة أخرى إلى الخدمة، وتندسُّ في وسط الذين عرفوك كاتبًا، ومحبًّا للكتابة، لتدوِّن التقارير عنهم.. هذه ليست الحقيقة كما تعلم.. إنه الخيال الذي طالما حدثتك عنه، الخيال الذي يعطي الكتابة طعمها. وجدتها نهاية مثالية.. والآن سأقرأ لك الفصل الأول.. الأول فقط وأتركك متشوّقًا حتى ينشر الكتاب.

كان قد فتح المغلف الأبيض، أخرج مجموعة من الأوراق البيضاء مكـــتوبة بخط أسود أنيق.. واستطعت وأنا على حافة الانهيار أن ألمح على الصفحة الأولى:

صائد اليرقات

رواية.

أعمال أمير تاج السر الإبداعية

رواية:

كرمكول 1988

سماء بلون الياقوت 1996

نار الزغاريد 1998، 2000

عواء المهاجر 2001

صيد الحضرمية 2001، 2002

مهر الصياح 2004، 2009

زحف النمل 2008

توترات القبطي 2009

العطر الفرنسي 2010

سيرة:

مرايا ساحلية 2000، 2003

سيرة الوجع 2002

شعر:

أحزان كبيرة 2005

للتواصل مع المؤلف

amirelsir@yahoo.com
